الف ليلة وليلة

حسن جوهر محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

١١



ألف ليلة وليلة

الجزء الحادى عشر

على الزئبق و دليلة المحتالة

كتبه

حسن جوهر

محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية



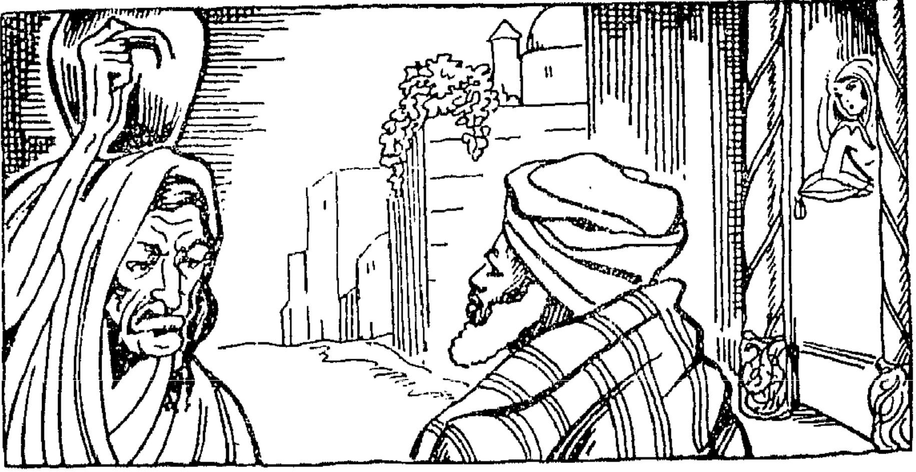
دار المعارف

رسوم: الفنانة النمساوية ستيلا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

دى عشر

صفحة



على الزئبق ودليلة المحتالة

١

وَفَدَ إلى بغدادَ من مصرَ فى عهد أحد خُلفاء بنى العبَّاس رجلٌ اسمه أحمدُ الدَّنَف ورفيقٌ له اسمُه حسن شُومان وكان هذان الرَّجلان قد اشْتَهَرا ببراعَة الحيلة ، والمهارة فيما يفْعلان من أفعال غريبة عجيبة وصلَتْ إلى مسامع الخليفة ، فأعجبَ بذكائهما ، وفَرْط نشاطهما ، وبلَغَ به العَجَبُ أن عَهِد إليهما ببعض أعمال الضَّبط التى تستلْزم الذكاءَ ، والنَّباهةَ ، وسعةَ الحيلة !!

فعيَّن أحمدَ الدنفَ مقدمًا على مَيمْنة بغدادَ ، وعيَّن حسنَ شومان مقدما على مَيْسرتها ؛ وأقَامَ لكل منهما إيوانًا به أربعون قاعةً ، لأنه كانَ لكُل منهما أربعونَ تابعًا ، ورَتبَ لكل منهما راتبًا شهريًا

قدرُه ألفُ دينار ، عدا رواتب الغذاء والكساء . واحْتُفلَ في المدينة بتعْيينهما هذا ، فخرج الوالى فى موكب حافل وعن يمينه أحمدُ الدنف ، وعن يساره حسنُ شومان ، ومن خلفهم الأتباع ، وأمامهم مناد ينادى يا أهل المدينة ؛ اعلموا أنه لا مُقدم على ميمنة بغداد إلا أحمد الدنف ، ولا مقدمَ على ميسرتها إلا حسن شومان ؛ فدينُوا لهما بالطاعة ، وقدموا لهما ما يلزَم من المعاونة والاحترام .

وسمعتْ بنداء المنادى ابنةُ المقدم السَّابق ، الذى عُيِّن أحمدُ الدنَف فى منصبه بعدَ موته ؛ وكانت اسمُها زينب ؛ فقالت لأمها :

يا أمّى ؛ أتسْمَعين هذا المنادىَ الذى يُنَادى بأن أحمَدالدنفَ وحسن شومان — وهما اللذان أتيَا إلى بغدادَ مطرُودين من مصر — قد عَيَّنَهُمَا الخليفةُ فى منصب والدى ، وأعطَاهما جميعَ رواتبه وجرَاياته ؟

فقالت الأمُّ — وكان اسمها دَليلَة :

لقد أعْجب الخليفةُ بمكرهما وألاعيبهما ، ووالله إن مكرهما وألاعيبَهما ليسا شيئًا بجانب مكْرى وألاعيبى أنا وأخى زُرَيق السَّماك .

فقالت زينب :

إن أخاكِ زُريقا قد ترَكَ ألاعيبَه ومقالبَه واكتفى بتجارة السمك وبيعه ، وإن ابنَ أختى أحمدُ اللقيط لا يزالُ صغيرًا ، لم يُدَرَّب على حيَلنا ومناصبنا ، فإلى متى سنظلُّ ساكتَين على حَالنا هذا ؟ ! ويأتى الأغرابُ فيأخذونَ مناصبنَا ، ويتمتعون بما كُنَّا نتمتعُ به من مغانمَ وشُهْرة ؟ ! !

فقالت دليلة :

إن أباك كان أيضاً رئيساً على خان الحمام الزاجل الذى يروح ويغدو بين مختلف البلاد برسائل الخليفة وهذا الخان به أربعون عبداً لخدمة الحمام ، وأربعون كلباً للحراسة ؛ ولهم طباخ يطبخ لهم الطعام ، ومن يكون رئيساً لهذا الخان يرتب له رواتب كبيرة ، وتصرف له جرايات حسنة . وأخشى ما أخشاه أن يأخذ أحمد الدنف أو حسن شومان هذا المنصب ، ويتمتعا أيضاً بما له من رواتب وجرايات .

فقالت الابنة :

انهضى إذن ؛ واعملى لنا بعضاً من حيلك التى تخرج الثعبان من شقه ، وأظهرى طرفاً من ألاعيبك التى تفوقين بها ألاعيب إبليس ، حتى يخرج اسمنا ، ويظهر صيتنا ، ويكون لنا نصيب فى رواتب أبينا .

فقالت دليلة بحماس :

والله يا ابنتى لسوف يرى منى أهل بغداد ألاعيب أقوى من ألاعيب أحمد الدنف وحسن شومان ، ومناسر تفوق مناسرهما .

ونهضت دليلة من فورها ، فأتت بعباءة صوفية بيضاء خشنة ، فارتدتها ، وتمنطقت عليها بحزام عريض وأخذت إبريقاً فملأته بالماء ، وسدت فوهته بقطعة من الليف وضعت بأسفلها ثلاثة دنانير . وقلدت عنقها بعدد كبير من المسابح ، وأخذت بيدها خرقة متعددة الألوان ، ثم خرجت إلى الطريق تلوح بها وتتظاهر بالتسبيح وهى تقول :

الله ، الله . . .

كما يفعَلُ الذاكرون فى حلَقات الذِّكر .

وظلّت تطوفُ بالطرقَات ، وتدخلُ فى حارة بعدَ حارة ، وتخرجُ من زُقاق إلى زُقاق ، تتحيّن الفرصَ لفَعلة تفعلُها ، حتى دخلَتْ إلى زقاق رُصفتْ أرضُه ببلاط الرخام ، ورُشت جوانبُه بالماء ، وبصَدره بابٌ له عتبةٌ من المرْمَر ، يقفُ بجانبها بواب مغربى عجوز . وارتفعَ صوتُ دليلةَ تذكر الله وتقول :

الله ، الله !

وأطلّت الرءوسُ من النوافذ والطيقان مستطلعةً أمر هذه الشيْخَة المتصوِّفة التى لا يَكُفُّ لسانها عن ذكر الله .

وأطلّتْ من نافذة الدار التى يقفُ ببابها البوابُ المغربى شابّةٌ مليحة ، رائعةُ الجمَال ، ولكن يبدو على محيّاها الحزنُ ، وهى تتزيّنُ بالنفيس الغالى من الُحلِىّ والُحلَل ، ولمحتْها دليلةُ فأتتْ حتى وقفَتْ بأسفل النافذة وهى لا تزال تردد .

الله ! الله !! يا أولياءَ الله !!!

فقالتْ الشابّةُ التى تطلُّ من النافذة لجارية عنْدها :

انزلى إلى الشيخ أبى علىّ البوّاب ، واستسمحيه فى أنْ يأذن لهذه الشيخة المتدينة بأن تدخُلَ إلينا حتى نتبرَكَ بها .

فنزلتْ الجاريةُ إلى البوّاب وأعلَمته برغبة سيدتها ، فتقدم البوابُ

من دليلةَ يريدُ تقْبيلَ يدها ودعوتها للدخول إلى الدار ، فمنَعتْهُ دليلةُ وهى تَقُول له :

استغفرِ الله يا بُنى ، أنتَ الآنَ ملحوظٌ من أولياء الله .

فقال الرجل :

اسقِنى من مائك يا أمى حتى تَحلَّ علينا بركتُك .

فخلعَتْ دليلةُ الإبريق من كتفها وأمالَته ، وانتزعَتْ الليفةَ من فَمه ، فسقطتْ الثلاثةُ الدنانيرُ على الأرض ، وملأتْ للبواب طاساً ليَشربَ .

ورأى أبو على الدنانيرَ وهى تسقُط إلى الأرض فالتقطها وقدمّها لدليلةَ وهو يقول :

خُذى يا سيدتى الشَّيخة هذه الدنانير قد سقطت من إبريقك .

فقالتْ دليلة وهى تُلوِّح بيدها :

أبْعدها عنى ، إنى لا شَأنَ لى بأمور الدُّنيا ، خذها فهىَ رزقٌ أرسلَه اللهُ إليكَ لتوَسعَ بها على نفسك !

ففرح البَوابُ بها ، وكان فى مَعْسرة من أمره ، واعتَقَد أن اللهَ قد أرسلها لهُ عن طريق هذه الشيخة المباركة ، فدعَاهَا إلى دخول الدار والصُّعود إلى سَيدته وهو يَقول لها :

اشملينا ببركاتك يا سيدتى الشيخة .

وصحبتْ الجاريةُ دليلةَ حتى أوصلتها إلى سيدتها التى نهضَت فرحَبتْ بدليلة ودعَتها إلى الجلُوس بجانبها ، وأمرَتْ لها بالطعام والشراب ،

ولكن دليلةَ أسرعتْ قائلةً :

يا بنَيَّتى ، إننى صَائمة ، فما أُفْطِرُ إلا خمسة أيام فى السنة !!

فقالت الشَّابة :

الله يجعلنا من بركاتك يا خالتى .

فقالتْ دليلةُ :

ستنالين بإذن الله ما تتمنَّين يا ابنتى ، ولكنْ أخبرينى عما بك فإنى أرَاك حزينةً مَشْغولةَ الخاطر .

فقالت الفتاةُ :

من أجل ذلك دعوتُك التماسًا لبركتك ، وطلبًا لمشورتك .

قالت دليلةُ باهتمام :

عَرِّفينى يا ابنتى كل ما يُقلقُك ، ويَشْغل خاطرك ، وإن شاء الله سيزولُ عنك كلُّ ما يُهمك ويُكدرك .

فقالتْ الفتاةُ :

اعلمى يا خالتى أنى متزَوجَةٌ من الأمير حسن ، وهو يشغَل منصبَ رئيس الشرطَة فى ديوان الخليفة . وفى يوم زواجى منهُ أقسمتُ عليْه ألا يتزوَّجَ من غَيرى قط ، وألاَّ يخالط نساءً سواى . فعاهَدنى على ذلك ومرَّت السنون على زواجنا دونَ أن أنجبَ لهُ ولَداً ولا بنتًا ، وقد عالجتْ نفسى بكل عَقَّارٍ ودواء سمعت به دونَ فائدة ؛ فحزن زوْجى لذلكَ ، وتكدر ، وهددَنى بأنه سَيَتَحللُ من عهده لى ، ويتزوجُ

غيرى من تُنجبُ لهُ أولاداً .. وهو الآن مُسافر ، وعند عودته سينفذُ ما هَدَّدنى به ، فماذا تريْنَ يا خَالتى الشيخة فى أمرى ؟

فقالتْ لها دليلة :

ولماذا يا ابنَتى لم تَذهَبى إلى الشَّيخ أبى الحمَلات ؟ !!

فقالت الفتاةُ :

ومَنْ هُو يا خَالتى الشيخُ أبو الحملات ؟

فقالتْ دليلة :

هو الذى إذا زَاره مَدينٌ يسَّرَ اللهُ لهُ دينَه ، وإذا زَارته عقيمٌ حملَتْ بإذن الله .

فقالت الفتَاةُ بلَهفَة :

يا ليتَنى يا خَالتى أستطيعُ الذهَابَ إليه !! إنى لا أعرفُ مكانه ، ولا أغادر بيتى إلاَّ نادرًا .

فقالتْ :

يا ابْنَتى إنى لن أغَادرك حتى آخذك إلى الشَّيخ أبى الحملات لتَبُثِّى لهُ همَّك ، وتخْلَعى عليْه حمْلك ، والذى تحملين به ــ بنتًا كانتْ أو وَلدًا ــ يكون تابعًا للشيخ أبى الحمَلات .

فقالت الفتاةُ :

والله يا خالتَى الشيخة لأتَّبعَنك فيما تُشيرينَ به علىَّ ، عسى أن يكون اللهُ قد مَنَّ علىَّ بما أريدُ .

فقالتْ دليلةُ :

إذن قُومى فهيِّئى نفسك للخروج استعداداً لمصاحبتى إلى ضريح الشَّيخ أبى الحملات .

فنهضَتْ الفتاةُ ــ وكان اسمهاخَاتون ــ ولبستْ ملابسَ خروجها ، وهى متَزَينَةٌ بأجمَل زينة ، متحليةٌ بأثمن الُحلى ، وأوصَتْ جاريتَها بملازَمة المنزل حتى تعَودَ من زيارة الشيخ أبى الحملات .

فقالتْ لها الجارية :

سمعًا وطاعةً .

ونزلتْ خاتونُ بصُحبَة دليلة بعد أنْ تركتْ دليلةُ إبريق الماء الذى كانتْ تحملُه بالدار ، فلما رَآهـُما أبو عَلى البوابُ سألَ سيدتَه بدهشة :

إلى أين يا سَيدتى ؟

قالت :

سأذهب يا أبَا علىّ لزيارة الشيخ أبى الحملات . عسى الله أن يفرجَ عنى ، ويزيلَ غَمى ، وَيُحل عُقدتى .

قال البَوّابُ :

اذهَبى يا سَيدتى ، فهذه الشيخةُ التى تَصْحبك شيخةٌ مباركة صالحةٌ قد ظهرَ لى صلاحُها ، وبانتْ لى كرامَتُها .

فلما خرجَتْ دليلةُ وخاتونُ إلى الطريق قالت دليلةُ :

يا ابْنتى ؛ سأسير أنا فى المقدمة ، وسيرى أنت من وَرائى على ُبعد

غير بَعيد ، لأنني كلما سرتُ أقبلَ علىّ الناسُ : هذا يريدُ تقبيلَ يَدى ، وهذا يُريدُ أن يُوفِيَ نذرًا نذرَه ، وهكذا ، وأخشى أن يكونَ فى ذلكَ حرجٌ عليك .

فقالت خاتون :

الرأىُ لك يا خالتى .

ثم سارت دليلةُ وخاتونُ من خلفها حتى وصلَتا إلى سوق التجّار ، وشقّتْ دليلةُ السوقَ وخاتونُ تتبَعُها ، وعينُ دليلةَ تلاحظُ ما يفعلُ جمالُ خاتون وزينتُها فى نفوس التجار الجالسين بمتاجرهم ، حتى مرتْ على دكان شاب تاجر اسمه التاجرُ حسن ، ورث تجارة كبيرةً عن أبيه وكان اسمه التاجر محسن . ولحظت دليلة أن التاجر حسنًا قد أعجبَ بقوام خاتونَ وجمالها ، وأنه يتتبَّعُها بنظراته وعينُه لا تكادُ تُفارقها .

فاقتربت دليلةُ من خاتون وقالت لها :

اجلسى يا ابنتى على هذا المقعد الذى بجوار دكان هذا التاجر حتى أقضىَ حاجةً لى وأعود إليك .

فقالتْ خاتُون :

سمعًا وطاعةً .

وجلَستْ على مقعَد بجوار دكان التّاجر حسن امتثالاً لأمر دليلةَ ، وغابتْ دليلةُ لحظةً ثم عادتْ فدخلتْ إلى دكان التّاجر ، وكان التاجرُ لا يزالُ يتأمَّل خاتونَ ، ويَعجبُ من حسنها وجمالها اللذين يبدوان من

خلال نقابها وإزارها .

وقالتْ دليلة للشاب التاجر :

هل أنتَ يا سيدى التاجر حسنُ بنُ التاجر محسن ؟

فقال الشاب :

نعم ، أنا هو ، ما الذى تَبْغين يا سيدتى ؟

فقالت دليلة :

لقد دلّنى عليكَ أهلُ الخير ، ومدحُوا لى حسنَ أخلاقك ، وأشادوا بطيب سَجَاياك . اعلم ياولَدى أنى كنتُ زوجةً لتاجر غنى ماتَ ، وخلّفَ لى هذه البنتَ التى تجلسُ بجوار الدكان ، وأنا كما ترَى قد صرتُ ولا همَّ لى إلا ذكرُ الله وعبادته ، وأريدُ أن أزوجَ ابنتى من شابّ كريم حتى يطمئن قلبى عَلَيْها ، وأتفرّغُ لما أنا فيه ؛ وقد دلنى أهلُ المعروف عليكَ ، وقالُوا : ما ينفعُ لابنتِك ، ولا يليقُ لها ، إلا التاجرُ حسنٌ . فجئتُ إليكَ أعرضُ عليكَ الأمرَ ، وصحبتُ معى ابنتى لتراها سرًّا وهى لم تُغَادر دارنا إلا اليوم ، وأنا على استعداد بأن أمدّكَ بما يلزَمُكَ من المال ، وأفتحُ لكَ عوضًا عن الدكان دكانين ، فما رأيكَ فى قولى يا ولَدى ؟

فسرَى الفرحُ إلى نفس الشاب لمّا سمع ذلك الكلامَ من دليلة ، وقالَ لها :

والله يا سيدتى إن أمى ما زالتْ منذُ ماتَ والدى تلحُّ علىّ فى أن

تخطُبَ لى لأتزوجَ ، ولتفرحَ بى وتطمئنَّ على قبلَ موتِها ، وأنا أقول لها : إنى لن أتزوجَ إلا ممنْ تراها عينى ، ويقعُ عليها اختيارى .

فقالت دليلة :

وأنا لا أمانع يا ولدى فى أن أُريكَ ابنتى لتخطبها على حسب رغبتك ، فهيَّا اصحبْنى لأريها لكَ ، وأطمئنك على محاسنها .

فقال الشابُ فرحًا :

حسنًا يا سيدتى ، فهذه هىَ رغبتى ، وهذا هو مُرادى ؛ انتظرينى لحظةً قصيرةً أكونُ بعدها على استعداد لمصاحبتك إلى حيثُ تريدين .

ودخلَ الشابُ إلى دكَّانه ، فارتدى أفخرَ ما كان يحتفظُ به فيه من ملابسَ ؛ ووضعَ فى جيب ردائه كيسًا مملوءًا بالدنانير ، وأتى إلى دليلةَ فقال لها :

هيَّا بنا يا سيدتى فإنى على استْعداد لمصَاحبتك .

فقالت لهُ دليلة :

سأسير أنا فى المقدمة ، وابنتى تسيرُ من ورَائى ، وسر أنتَ على مبعَدة منها بقدر ما تَراها .

فقالَ الشابُ :

سمْعًا وطاعةً .

وسارَ التاجرُ حسنٌ يتبعُ خاتونَ ، وخاتونُ تتبعُ دليلةَ ، ودليلةُ فى المقدمة تقدحُ ذهنَها ، وتعملُ فكرَها ، فيما يجبُ أن تتَّبعَ بعدَ ذلكَ

من تدبير ، وتتخذ من خطوات .

ومرت دليلة في سيرها على مصبغة لرجل يدعى الحاج محمداً ، كانت تعرف أنه يخصص جانباً من داره التي يسكن بها لنزول التجار والعمال الذين يفدون إليه بالأصباغ من مختلف البلاد . فأشارت إلى خاتون أن تنتظرها ، وتقدمت هي فدخلت إلى المصبغة وقالت لصاحبها :

هل أنت الحاج محمد صاحب المصبغة ؟

قال :

نعم يا سيدتي ؛ هل من خدمة ؟

قالت :

لقد أرشدني أهل الخير إلى أن أقصدك في أمر لتساعدني فيه ، فهذه الفتاة التي تراها واقفة على الجانب الآخر من الطريق هي ابنتي ، وهذا الفتى الذي يقف بالقرب منها هو ابني ، وأنا أواليهما بالتربية والرعاية منذ أن مات والدهما ، وكان لنا دار نسكن فيها ، إلا أنها قد صارت على مر الزمن ، وتقادم العهد داراً عتيقة ، في حاجة إلى الإصلاح والتعمير ؛ فأحضرت مهندساً ليعاينها ، ويرى ما يجب اتخاذه بشأنها ، فأشار بصلبها على عيدان من الخشب ، وأمر بخروجنا منها حتى يتم تصليحها وترميمها خوفاً من سقوطها علينا .

وقد أشار الخيرون علي أن أقصدك لتؤجر لي غرفتين من طابقك الذي تخصصه لضيوفك وعمالك وذلك بصفة مؤقتة حتى يتم ترميم

دارنا ، ونأمن على أنفسنَا حينَ السكنى فيها .

ونظرَ الصباغُ إلى خاتونَ وإلى التاجر حسن ، وهما واقفان فى انتظار دليلةَ على مبعدة ، فسرَّه منظرهما ، وأعجبَ بجمالهما ، وودَّ لو استَطَاعَ أن يُضيفَهما بداره ، وينزلَهما بمنزله ، ولكنَّه قالَ لدليلَة :

ولكنَّ الجناحَ الذى تقصدينَه يا سيدتى بكلامك هو جَنَاح مخصَّص لنزول الضُّيُوف والعُمال . فكيفَ يمكنُك السكنى بأولادك فيه ، ومشاركة الرجال إذا حلَوا به ؟ !

قالت دليلة :

يا بنى ؛ لا ضَيْرَ علَيْنَا ؛ فضيوفُكَ ضيوفُنا ، ونحنُ لن نمكثَ على هذه الحال طويلاً ، فإن دارَنا سرعان ما يتمُّ ترميمُها ، ونعودُ إليها ؛ وتكونُ بذلك يا سيدى قد أسديتَ لنَا معروفًا كبيرًا ، وقدَّمتَ لَنَا يداً لن ننسَاها .

فقال الصَّبَّاغ :

قد قبلتُ يا سيدتى ما تُريدين على الرحب والسَّعَة ؛ ولكن انتظرى حتى أفرغَ من عملى ، وأصحبَكِ إلى دار الضُّيوف ، أو حتى يأتىَ أحدُ عمَّالى فيحلَّ محلى بالمصْبَغَة ، وبذلكَ أتمكنُ من مُصَاحبتك .

فقالتْ دليلة :

يا سيدى ؛ إنى أعرفُ داركَ هذه ، فاسمحْ لى أن أذهبَ إليها الآن حتى لا أدعَ وَلدىَّ هكذا فى عرض الطَّريق ، وحتى أستطيعَ أن أنقلَ

إليها ما أشاءُ من متاع دارنا قبلَ حلول المساء .

فقال الصباغُ :

لا بأسَ بما تقولين . خُذى ؛ هذه هى مَفاتيحُ الدار . فالمفتاحُ الكبيرُ لباب الدار الخارجى ، والمفتاحُ الأوسطُ لبابها الداخلى ، والمفتاحُ الصغيرُ لحجرة الضيوف . فاذهبى وأعدى أمورك ، ورتبى شئونك واعتبرى نفسك فى دارك ، حتى أفرغَ من عمَلى وأمرَّ عليكم إنْ شاء الله .

فأخذتْ دليلةُ مفاتيحَ دار الضيافة من الصَّبَّاغ ، وانصرفَتْ وهى تشكرهُ ، وتدعُو لهُ بدوام العز والمقْدرة على عمَل المعروف .

وسارت دليلةُ من جديد ، ومن وَرائها سارتْ زوجةُ صاحب الشرطة ، ومن وَرَائهما سار التاجرُ حسنٌ حتى انتهت إلى دار ضيافة الصَّباغ ؛ ففتحتْ بابها الخارجى بالمفتاح الكبير ، ودخلتْ ففتحتْ الباب الداخلى بالمفتاح الثانى ، ثم قالتْ للفتاة التى أتتْ على أثرها :

ادخلى فهذه هى دارُ الشيخ أبى الحملات .

ثم دعتها إلى الدخول إلى إحدى القاعات الداخليَّة ، وقالت لها :

يا ابنتى ؛ اخلعى إزَارَك ، وخَفِّفى عنك ملابسك ، فالشيخُ أبو الحملات لايُحب إلا من تخَفَّفَ من حمْله ، ويسر من زينته . ثم انتظرينى حتى أعود إليك .

فقالتْ لها الفتاةُ :

سمعًا وطاعةً يا خالتى

ثم دخلتْ إلى القاعة ، وخرجتْ دليلةُ إلى التاجر حسن ، وكان ينتظرُ بالباب ، فدعته إلى الدخول ، وفتحت له قاعة الضيوف ، وقالت له :

انتظر حتى أحضرَ لكَ ابنتى لتراها .

ثم عادتْ إلى خاتون ، فلما رأتها خاتون مقبلةً عليها قالتْ لها :

ها أنا ذى يا خالتى قد خلعتُ إزارى ، وتخففتُ من ثيابى ، فهيا لنزور الشيخَ أبا الحملات .

فقالتْ دليلة :

يا ابنتى ؛ إن الشيخ نقيبُ الشيخ أبى الحملات ليسَ موجوداً الآنَ ، ويحُل محلّهُ ابنهُ ، وهو ولد عبيطٌ أبله ، أخشى منه عليك .

فقالتْ الفتاةُ :

وما الذى تخشين منه يا خالتى ؟

قالت دليلةُ :

أخشى أن يرى عليك حليك وزينتك فيخطفها منك ليلعبَ بها ، فيتلفَ بذلك حليتك ، ويشرمَ أذنك .

فقالتْ خاتون :

وما العملُ ، وقد كنتُ أود الزيارة قبلَ أن يفد الزوارُ ويزدحمَ المكانُ بالناس ؟!

فقالتْ دليلةُ :

لاَ بأسَ يا ابنتى ، اخلعى حليتك وهاتيها أحفظها لك ، وسآخذُ

ملابسك لأعلقها لك على ضريح الشيخ حتى تحلَّ عليها البركاتُ . ثم آتى لأصحبك .

وخرجتْ دليلةُ بملابس الفتاة وحليها فخبأتها بمكان قربَ باب الدار ، ثم دخلتْ إلى التاجر حسن وابتدرته قائلةً :

اللهُ يجازى الحاسدين الغيورين الذين لاهمَّ لهمُ إلا حسدُ الناس ومشاكستُهم .

فقالَ التاجرُ حسن :

ما الذى جرَى ؟!

قالتْ دليلة :

لقد رآكَ الجيرانُ وأنتَ تدخلُ إلى دارنا ، فحسدونا عليك ، وقالوا لابنتى من فوق سطح الدار : لماذا جاء هذا الشابُّ الأبرصُ إلى داركم ؟ فلما رحتُ أدعوها لتراها ، وعرَّفتُها أنكَ قد جئتَ لخطبتها قالتْ : إنَّنى لا أتزوجُ أبرصَ ، وأقسمتْ ألا تتزوَّجك حتى تراك كما تراها .

فضحكَ التاجرُ حسنُ ، وكشفَ لدليلةَ عن ذراعيْه وهوَ يقول :

هاك ذراعىَّ فانظريهما .

فضحكتْ دليلةُ وقالت :

يا بنى ، أنا أعرفُ أن جسمكَ من أصحِّ أجسام الشباب وأجملها ، ولكن هى ابنتى التى سممَّ رأسها الحاسدون ، اخلع فراءك وملابسك هذه الكثيرة ، واكشفْ لها صدرك هذا الجميلَ ، وهات ملابسكَ

أحفظها لك بالقاعـَة الداخلـيَّة ، حتى ترى ابنتى وترَاك ، وتجلسَ معـَها وتجلسَ معـَك .

فخلَعَ التاجرُ حسنٌ فراءه السّمُّور ، وبعضًا من ملابسه الحريرية الثمينة . وبداخلها كيسُ دنانيره وأعطاها لدليلةَ ، وهو يقولُ لهـَا :

هيّـَا ادعى ابنتك لترانى وأرَاها .

فخرجتْ دليلةُ تحملُ الملابسُ وتقول :

سأحضرُها إليكَ فى الحال .

وذهبتْ دليلةُ فجمعـَتْ ملابسَ الفتاة وحُليها إلى ملابس الفتى ونُقُـوده ، وحزَمتْـهـُما فى حُزْمـَة حـَمـَلـَتْـها . وغادرتْ الدارَ ، وأغلقت البابَ من خلفها على الفتاة والفتى .

وسَارتْ دليلةُ حتى أتتْ إلى دكان رجل عطار طيب القلب ، فوضَعتْ حمْلَـها عندهُ ، وقالتْ له :

احفظْ لى هذه الأمانةَ عندك حتى أعود لأخذها .

فقال لها الرجلُ :

ضعـيها كما تشاءين ، فهىَ فى الحفظ والصَّوْن .

وانصرفَتْ دليلةُ حتى أتتْ إلى مصبغْة الرجل الصبَّاغ الذى سمحَ لهـَا بالسكنى فى داره ، فلما رآهـَا مقبلةً عليه سألها :

لعلّ الدارَ تكونُ قد أعجبتكم .

فأجابتْ دليلةُ :

لَقَدأعجَبْتنا كثيراًجداً ، وإنْشاءَ اللهُستطيبُ لَنَا الإقامةُفيها ، وأنا الآنَ ذاهبةٌ لأحضرَ الحَمالين لحمْل حوَائجنا التى نحتاج إليْها من دارنا ، أما وَلدى وابنتى فهمُا الآنَ فى دارك التى تكرمتَ علينا بها ، وقد اشتَهيَا أن يكونَ طعامُهما اليومَ لحماً محمَّراً ، وطلبا منى أن آمرَ عليكَ لأدعوَكَ إلى مشاركتهما فيه ، ليأتنسا بك ، ويشكُراك على ما أوْليتنا من عطْف ومعروف . فهاك يا سيدى ديناراً ، اشتر به لحماً محمَّراً وخبزاً ، واذهبْ إليهما لتتغدوْا جميعاً به ، حتى أذهبَ أنا للإشراف على جمع متاعنا ، ونقل حاجاتنا .

فقالَ الصباغُ :

إنه ليسرنى أن تكونَ الدارُ قد أعجبتكم ، ويسرنى كذلك أن أشارك ولديك الطعامَ . ولكن . . . كيفَ أذهبُ وأتركُ مصبغة بدون حراسة وملابسُ الناس بها .

فقالتْ :

يحرسُها صبيكَ حتى تعودَ ، فاللحمُ جاهزٌ بالسوق ، والمنزلُ قريبٌ .

فقال الصباغ :

كما تَرَيْنْ .

وأخذَ الدينارَ ومفاتيحَ الدار من دليلةَ ، وتوجّه إلى السوق لشراء ما يلزَم من اللحم والخبز .

أما دليلةُ فعادتْ إلى العطار حيثُ استردّتْ منهُ ما أودعته عنده وعادتْ إلى المصبَغة فقالتْ لصَبى الصَّبّاغ :

اذهبْ إلى مُعَلمك لحمل ما يشترى بدلاً عنهُ ، وها أنا ذى جالسةٌ بباب المصبَغة حتى تعُودا.

فقال الغلام :

أمُرك يا سيدتى .

ثم أسرعَ إلى السوق ليلحقَ بسيده .

ودخلَتْ دليلةُ إلى المصبَغَة ، فجمعتْ ملابس النساء التى بها ، وخرجتْ . وإذْ بحمَّار يسيرُ بحمَاره فنادته قائلة :

يا حمَّار ، أتعرفُ ولدى الصَّباغ ؟

قال :

نعم يا سيدتى ، أعرفُه ، فهو رجُلٌ معروفٌ بالطيبَة ، مشهودٌ له بالمرُوءة .

قالتْ دليلةُ وهى تتصَنَّع الحزنَ والبكاء :

اعلم أن وَلدى قد أفلسَ وتراكمتْ عليه الدُّيوُن ، ونريد أن نُثْبتَ إعسارَه ، حتى إذا ما أتى علَيْه كشفٌ أو حجزٌ من طرف القاضى ثبتَ عجزُه وإفلاسُه .

فاعملْ معَنا معروفًا بأن تؤجرَ لى حمارك أحمل عليه ملابس الناس لأردَّها إليهم ، وخذ أنتَ قضيبًا من الحديد ، واقلعْ به خزَانات

الماء التى بالمصبَغة ، وكسَّر به أوانى ألوان الأصباغ ؛ وهذا دينارٌ أجرةً لحمارك الذى سأوزعُ عليه حاجات النَّاس ، ومتى فرغتَ من إتلاف كل ما بالمصبغة انتظرنى بها حتى أعودَ إليكَ بالحمار .

فقالَ لها الحَمَّارُ :

وا أسَفَاهُ على ما أصَاب ابنك ! والله يا سيدتى إنى لأخدمُه جزاءَ معرُوفه دونَ أجر أو جَزَاء !

فقالتْ دليلةُ :

أدامَ اللهُ لنَا معروفَك ، وقدَّرنا على أن نردَّ لك خدمَتَك لَنَا فى أحسن الأوقات .

وأسْلم الحمَّار حمارَه لدليلةَ ، فحملَتْ عليه ما أخذتْهُ من الملابس التى فى المصبغة ، وما أخذته من ملابس زوجة صاحب الشرطة ، وما أخذتْه من التاجر حسن ؛ وسحبت الحمارَ وذهبتْ إلى منْزلها حيثُ استقبلتها زينبُ بقولها :

ماذا فَعَلْت فى يوْمك يا أمى ؟

قالتْ دليلة :

لقد لعبتُ أربعةَ ألاعيبَ على أربعة أشخاص : زوجة أمير ورئيس شُرطة ، وابن تاجر ، وصبَّاغ ، وحمَّار ؛ وجئتُ لك بملابس الزوجة وحُليِّها ، وملابس ابن التاجر ونقوده ، وملابس النساء التى يصبَغُها الصبَّاغ ، وحملتُ كل هذا على حمَار الحمَّار .

فقالتْ زينبُ :

والله يا أمى إنك لبارعةٌ ماهرةٌ تفوقين فى حيَلك ومَكرك أحمد الدنف وحسن شُومان ، ولكنَّك لن تستطيعى الخروجَ بعدَ ذلكَ والسيرَ فى الطرقات ، وكلُّ هؤلاء الناس فى طَلَبك .

٢

أمَّا الصَّبَّاغُ فقد اشترى اللحمَ والخبزَ وحملَه على رأس صبيه الذى لحق به ؛ ومرَّ على المصْبَغة ليتركَ صَبيَّه بها بدلاً من دليلةَ ، ولكنْ ما كانَ أشدَّ دهشتَه وأكبرَ روْعه حينَ لم يجد دليلةَ بالمصبغة ، ووجدَ بدلاً منها الحمَّارَ ، وهو جار فى تقليع الأحواض ، وتكسير الأوانى والدنان ؛ فصاحَ عليْه مُرتاعًا :

ماذا تَفعل يا رجُل ؟

فالتفَتَ الحمَّار ، فوجدَ صاحبَ المصبَغَة أمامَه يجول بعينَيْه فى أنحاء مصبَغَتِه وهو لا يكادُ يصدق ما ترى عيناه . فتقدمَ منه الحمَّارُ وهو يقول :

قلبى معك يا مُعَلِّم ، منذ سمعتُ بخبر إفلاسك ، والرغبة فى كتابة وثيقة إعسَارك !

فصاحَ الصبَّاغ بصوت مبحوح أجشّ :

ما الذى تقولُ يا رجُل ؟!

قالَ الحمَّار :

لقد أخبرتنى أملكَ بذلك ، وطلبتْ منى إتلافَ ما فى المصْبَغَة حتى يثبتَ إعسارُك ، وتُعفى من تسديد ديونك .

فعادَ الصباغُ إلى الصياح بصوْته المختنق :

من هى أمى ؟! إنَّ أمى قد ماتتْ منذُ زمن طويل .

فصاح الحمَّارُ بدوْره :

إذن ؛ من هى العجوز التى كانتْ هُنا ، وحمَلتْ ملابس النَّاس على حمَارى ، أنا لا أطْلُبُ حمَارى إلاَّ منك ومن أملك .

فأدركَ الصَّباغ أن العجوزَ ما هى إلا العجوزُ التى أجَّرتْ منه الدارَ ، فأقبلَ على الحمَّار يكيلُ له الضربات واللكمَات وهو يصيحُ به :

أ أنتَ الذى أعطيتها حمارَك لتحملَ عليه مَالى ومال النَّاس ؟!

قلْ لى : أينَ ذهبتْ العجوزُ بأموالى ؟!

فصاحَ الحمَّار :

قلْ لى أنت أين ذهبتْ أملك بحمارى ؟

واجتمعَ الناسُ على صياح الصَّبَّاغ ، وصراخ الحمَّار ، واستفسروا عن سَبب عراكهما ، فقَصَّ كلٌّ منهما قصَّتَه .

فقال رجلٌ من المجتمعين :

إن الحمارَ لا يلزم إلاَّ من الصَّبَّاغ .

فقال الصَّباغ :

وما شأنى أنا فى ذلك ؟ ! أما يكفينى ضياعُ أموالى .

فقال الرجلُ :

لأنَّك أنتَ الذى استأمنتَ العجوزَ على مَصْبغَتكَ فحسبَها الحمَّار أمَّك ، وما سَلَّم حمارَه إليها إلا على هذا الاعتقاد .

وقال رجلٌ آخرُ للصبَّاغ :

أتؤجرُ لعجوز دارَ ضيافتك ، وتسلم لها مفاتيحها ، دونَ أن تعرفها ؟

فقال الصبَّاغ :

لقد رَدتْ إلىّ المفاتيح ، وأخبرتنى أن وَلدها وابنتَها بالدار ، وكلفتْنى أن أذهبَ إليهما بطعام الغَداء ، فهيَّا بنَا إلى الدار لنرى من هُناك .

وسَار الجميعُ يقصدون إلى دار الصَّباغ ليرَوْا ما حَلّ بها .

وفى هذه الفترة كانَ التاجر حسنٌ قد اشتدَّ به القَلق لغياب العجوز التى خَرجتْ لتأتيهُ بابنتها كى يراها فلم تعد ، وذلك بعد أن أخذتْ ثيابه معها .

وكانتْ زوجةُ صاحب الشرطة قد أدهشها وأقلقها أيضًا غيابُ الشَّيْخة التى أتتْ بها لزيارة الشَّيخ أبى الحمَلات ، فغادرت الغُرْفة التى كانتْ بها ، وراحتْ تبحثُ عنها هُنا وهُناك ، وتفتشُ عن المقام الذى به ضريحُ الشيخ أبى الحمَلات ، حتى دخلت إلى القاعة التى بها التَّاجر

حسن ، فلَمَّا رَآها قالَ لها :

تعالىْ وانظُريني !

ثم كشَفَ لها عن ذراعيه وصَدره ، فظَنَتْهُ الفتاةُ الشَّابَّ الأبله الذى حدثتها عنهُ دليلة ، فقالتْ له :

هلْ أنتَ ابنُ نقيب الشَّيخ أبي الحمَلات ؟

فقال :

أنا التَّاجرُ حسن بنُ التَّاجر محسن ، وقد دعَتْنى أمك إلى هُنَا لأراك وأتزوَّج منك ! !

فظنت الفتاةُ أنها بإزاء شَاب مجنون ، ولكنَّها لم تجدْ بدًّا من أنْ تقول :

أنا ما جئتُ إلى هُنَا إلاَّ لزيارة الشيخ أبي الحملات ، فدلني على مكانه حتى آخذ ملابسى من الشَّيْخة التى ذهبتَ بها لتضعَها على مقَامه ، وأزورَ وأنصرف .

فقال الشَّابُّ وقد زادَ به القلَق :

أينَ أمك التى أخذتْ ملابسى ؟

قالتْ :

أنا مالى أم . أينَ ملابسى أنا وحُليِّى ؟ !

فقال الشابُّ بغَضَب :

أتأتى بى أمك إلى هُنا ، وتأخذ ملابسى ونُقُودى ، وتقولين لى :

ليسَ لك أم ؟! أنا لا أطلبُ ملابسي ونُقُودي إلاَّ منْك .

فبكت الفتاةُ وقالت :

لقد أتتْ بي الشيخةُ لزيارة أبي الحملات ، وأخذتْ ملابسي وحُلِي لتضعَها على ضريحه، وما أرى أحداً هُنا غيرك . فأنا لا أطلب ملابسي وحُليِّي إلاَّ منك .

وبينما الشابُّ والفتاةُ على هذه الحال إذ فتحَ باب الدار ودخلَ الصباغُ ومن ورائه الحمَّار يتبعُهما جمعٌ من الناس .

وما وقعتْ عينا الصَّبَّاغ على الفتى والفتاة حتَّى أسرعَ إليهما يسألهُما :

أين أمكمُا ؟!

فقالا له :

من تَعْني بأمنا ؟

قال :

العجوزُ التي أجرتْ مني الدارَ وأتتْ بكُما إلى هُنا !

فقصَّ كل من الفتى والفتاة قصَّتَه مع دليلةَ ، والجمعُ يسمع قولهما في دهشة وعجَب ، فلما فرغا من قصَّتهما عرفَ الجميعُ أن الفتى والفتاة والصَّبَّاغَ والحمَّار كانوا ضحيةً لمحتالة جريئة ، بلغتْ أقصى درجات الجرأة والجسارة .

وعادَ الصباغُ يرثى حاله ويضربُ كفًّا بكف وهو يقول :

يا ضَيْعةَ مالى ومال النّاس !
وأخذَ الحمّار يُوَلْوِل :
من أينَ لى بحمار ؟ !
والتاجرُ حسنٌ يقُول :
ملابسى وألفُ دينار !
والفتاةُ تبْكى قائلةً :
يا حَسرتى على حُلْيى ! ! ويا لهفتى على حُلَلى ! !
والناسُ منهم من يقول :
عَوضكم على الله .
ومنهم من يقول :
اذهَبُوا فابحثُوا عنها واستقصُوا خبرَها .
ومنهم من يَقُول :
اذهبوا وارفعُوا شكْواكم إلى الوالى .
فقالَ الصبّاغُ للحمّار :
هيّا بنا إلى الوالى .
ثم قالَ للتّاجر حسن والفَتَاة :
هيّا فغادرا الدار ، لأنى أودُّ أنْ أغلقَ بابها قبلَ مسيرى .
فقال التاجرُ حسن :
وكيفَ ندخلُ إلى داركَ مُكتَسين ، ونخرجُ عُريانين ؟ !

وقالَ الناسُ للصَّباغ لائمين :

كيفَ تخرجُ الفتاةُ من دارك بدون ملابسَ ودون إزَار ؟ !

فلم يَسَع الصباغُ إلا أنْ يرسلَ إلى داره من أحضرَ ملابسَ للتَّاجر . وملابسَ للفتَاة ، فلبسا .

وخرَجت الفتاةُ ومعَها من أهل المعْرُوف من أوْصَلها إلى دارها .

أما التَّاجرُ حسن فقد سَارَ مع الصَّبَّاغ والحمَّار إلى الوالى حيثُ رَفَعوا إليْه أمرهم ، وقَصُّوا عليه ما جَرَى لهم من العجوز . فقالَ لهمُ الوالى :

سأكلفُ رجالى أن يتَحرَّوا عنْها ، وأنتم أيضًا اذهَبوا فابحثُوا من جهتكمْ إذ أنكمْ أدرَى من رجَالى بها ، وإذا عَثُرتم عَلَيها فاقبضُوا عليها وائتونى بها .

فذهبَ التاجرُ حسنٌ والصباغُ والحمَّارُ ، يدورُون فى الطُرقات ، ويبْحَثُون هنَا وهنَاك بجد وعَزْم علَّهم يعثُرون على غريمتهم دليلة .

٣

أما دليلةُ فإنها ظلَّتْ معتَكفةً بمنزلها بعدَ حادثها مع ابن التَّاجر والصَّبَّاغ والحمار وامرأة رئيس الشرطة بضْعةَ أيام ؛ ثم قالتْ لابنتها زينب :

يا ابنتى ؛ إنى أريدُ اليوم أن أخرجَ لأعمل عملةً أخرى .

فقالت زينب :

يا أمى ؛ إنى أخَافُ عليك بعدَ الذى عَملت .

قالتْ الأم :

لا تخافى ، ولا تخشَىْ علىَّ شيئًا .

ثم نهضتْ من فَورها فتنكرتْ فى زى خادمة من خادمات الأغنياء ، وخرجتْ إلى الطرُقات تتَمشَّى وتلاحظُ ما يجرى هُنا وهُناك . وبينما هى كذلك مرَّت على حَارَة بصدرها بابٌ لمنزل كبير مفتوح على مصراعيْه تنْبعثُ من داخله نغمات الطُبُول ، ونغم الدفوف ، وعزْف الموسيقا ، وقد فرشتْ أمامه الأبسطةُ وعُلقتْ بجانبيْه الأقمشة ، وزُينتْ واجهتُه بالزينات والأعلام ؛ فعرفَتْ فيه دليلةُ منزلَ شاه بندر التجار ببغدادَ . وأمام المنزل تقفُ خادمةٌ تحملُ على كتفها طفلاً صغيرًا تلاعبُه وتلاطفه وتُناغيه ، وقد ارتدى الطفلُ ملابسَ من الحرير والقطيفَة المطرزة بخيوط القصب ، ومن حول رقبته قلادةٌ مرصَّعَةٌ بالماس وفصوص اللؤلؤ .

وما رأتْ دليلةُ هذا الطفلَ وما عليه من الملابس والجواهر حتى صحَّ عزمهُا على أن يكون هو صَيدها الجديد !

فسارَت حتى اقتربتْ من الخَادمة وسألتها وهى تتصنَّع الدهْشَة :

ماذا عندَ سيدتك اليوم وأنا لا أدرى ؟!

فقالتْ الخادمة :

عندها اليومَ عقدُ قران ابنَتِها .

فقالت :

وما لك تقفين بالطفل ها هُنا ، ولا تفرِّجينَه على ما عندكُمْ من طبْل وزمر وغناء ؟ !

قالت الخادمة :

إن الطفلَ لا يكُفّ عن التَشَبث بسيدتى أينما تروحُ وأينما تغدو ، ويعوقُها عن أداء واجبات الضيافة مع مَن عندها من السيّدات .

فأخرجتْ دليلة قطعةً معدنيةً من جيبها تُشْبهُ الدينار الذهبى ، وأعطتْها للخادمة وقالتْ لها :

اصعَدى إلى سيدتك ، وأعطيها هذا الدينارَ نقوطًا للمغنيات وقولى لها : أمُّ الخير فرحت كثيرًا لعقْد قران ابنتك ، وإن شاء اللهُ يوم الزّفاف تأتى هى وبناتُها لنقوط المواشط .

ثم قالتْ للخادمة :

وأعطِينى الطفلَ أحملهُ عنك إلى أنْ تعودى حتّى لا يتشبث بأمه إذا صَعدت إليها به .

فأخذت الخادمةُ القطعةَ المعدنيةَ الصفراءَ وهى تظنها دينارًا ، وصعَدت إلى سيدتها .

أما دليلةُ فقد أخذتْ الطفلَ وسارتْ ، حتّى إذا ما كانتْ بطريق

خـال من المارّة نزعتْ ما عليْه من حُلى وملابسَ خارجية ثمينة ، ثم سارتْ بالطفل حتى بلغـتْ به سُوقَ الجواهر ، وأتتْ إلى دكان جوهرىّ يهودىّ اسمهُ عـُذرة ، فتقدمتْ منهُ وقالتْ لصاحبه :

ألستَ أنتَ المعلمُ عذرة ؟

قال الجوهرى :

نعم أنا هُو ، ماذا تـبغين ؟

قالتْ :

أتعرفُ هذا الطفلَ ؟

فتفـرّسَ الرجلُ فى وجه الطفل وقال :

نعم فهو ابنُ شاه بنْدر التجار ، فكثيرًا ما جاء به أبوه إلى السوق وكانَ محلّ إعجابـنا .

قالت :

اعلمْ أن اليومَ هو يومُ عـقْد قران أخته بنت شاه بندر التجـّار .

فأمّن الرجلُ على كلامها قائلاً :

نعم ، فإنّ التجـّارَ على علم بذلك .

قالتْ :

لذلكَ أرسلتْنى سيدتى إليكَ لأن ابنتَـها فى حـاجـة اليوم إلى بعض الجواهر ، فأعطنى أفضلَ ما عندكَ من الأساور والقلائد والُحلى والخواتم ، حتى تـنْتقىَ من بـيْنها ما تريدُه ، وأردُّ لكَ الباقى ، وأحضرُ لكَ

الثمَّنَ . وسأدعُ يا سيدى هذا الصغيرَ عندكَ رهينةً حتى أعود.

فقال اليَهُودى :

إنَّ لنَا عظيمَ الشرف فى أن يَقَعَ اختيارُ سيدتك على محلنا لأخذ ما تُريدُ لابنتها العَرُوس ، خذى كلَّ ما تشائين واعرضيه عليْهَا لتَنتقىَ منهُ ما تُريد .

وأخرجَ اليَهودى من عُلبه وأدراجه الكثيرَ من الجواهر المختلفَة الألوان والأشكال ، وَدفعها إلى دليَلةَ فأخذتها وانصرَفتْ إلى منزلها بعد أنْ تركتْ للجَوهرى الطفْلَ رَهينة .

أما جَاريةُ شاه بندر التجَّار فقد صَعدتْ إلى سيدتها وأعطتها قطعةَ المعْدن الصَّفرَاء التى أعطَتها لهَا دليلةُ ، وقالتْ لسيدتها ما قالتْهُ دليلةُ لهَا ، فسألتْها سيدتها :

وأينَ سيدك الصَّغير ؟

أجابتْ الجاريةُ :

هوَ معَ أم الخير حملتْه عنى كيلا يتَشبَّثَ بك حتى أعود .

وَهمتْ زوجةُ شاه بندر التجار بإعطاء القطعة للمغَنيَة ، ولكنَّها لاحظَتْ أنها ليْستْ بدينار ، فاستغرَبتْ الأمرَ وقالتْ لجاريتها بحدة :

مَن هى أمُّ الخير هذه ؟ ! انزلى سريعًا وائتينى بالطفل .

فنزَلتْ الجاريةُ إلى حيثُ تركتْ دليلةَ وهى تحملُ الطفلَ فلم تجدهُمَا ، فبحثتْ هُنا وهُنَاك بلهفة فلم تعثُرْ لهُمَا على أثر ، فصرَخت

وَوَلوَلتْ وبكَتْ ، فنزَلَ على صرَاخها ووَاولتها وبُكائها أهلُ الدار ، واجتمع عليهم نفرٌ من عَابرى الطريق ، فسألوا الجارية عن أمرها ، واسْتفسرُوها جَلية الخبر ، فقصَّتْ لهُمْ ما كانَ بينها وبينَ دليلة .

فانقلَبَ فرحُ أهل الدار وسرورهم حُزنًا وغمًّا ، وتبدَّل غنَاؤهُم وضَحكهم بكاءً ونحيبًا .

وأسرعَ نفرٌ منهمُ وعلى رَأسهم شاه بندر التجار يبحثون عن الطفل وخاطفَة الطفل .

وسَارُوا هُنا وهُناكَ يسألون ويستقصُونَ ، حتّى ساقتهم أقدامهم إلى سوق الجوَاهر ، وهُنَاك شاهد شاه بندر التجَّار ولده جالسًا على منصَّة بدكان اليَهُودى وهو يلاعبه ويُلاطفه خوفًا من بكائه فأسرعَ الشَّاه بندرُ إلى طفله يحتَضنُه بشوق ، ويُقَبله بلهفة ، وهو يسأل اليَهودى :

كيفَ عثُرتَ على وَلدى يا مُعلم عُذرة ؟!

فأجابه اليَهودى :

إنَّ جاريتك هى التى أتتْ به إلى هُنا ، وأخذتْ جواهرَ لأجْل ابنَتكَ كى تعرضَها على زَوْجتك وتركتْ الطفلَ رَهينةً عندى .

فقالَ الشَّاه بنْدر مُستنكرًا قولَ اليَهُودى :

أىُّ جَارية ؟! وأىُّ جَواهر ؟!

إن ابنتى لا تَحتَاجُ إلى جَواهر ، وما كانتْ التى تحملُ الطفلَ

بجَاريتى ؛ بلْ هىَ امرأةٌ اختطفتْ الطفلَ منْها ، وكُنَّا بسبيل البحث عنها .

فجزع اليَهُودىُّ وكادَ يُغشى عليه من هَوْل الصَّدمَة ، وأدركَ أنَّه كان ضَحيَّةً لمحتالة جريئة أخذت جوَاهرهُ بحيلة ماهرة بارعة . ولكنَّه عادَ إلى نَفْسه ، وانتبَه إلى أمره ، فصَاحَ على شاه بندر التجَّار قائلاً :

إنَّنى لاَ أطلبُ جوَاهرى ومَالى إلاَّ منكَ ، فأنا ما ائتَمنتُ المرأة التى أعطيتْها الجواهرَ إلا على ظن أنها جاريتُكَ حيثُ قد جاءتنى بوَلدك .

فاحْتَدَّ شاه بندر التجار على اليَهُودى قائلاً لهُ :

قلتُ لكَ إننى لا أعرفُ هذه المرأةَ . وما هىَ إلاَّ محتالةٌ اختَطفَتْ وَلدى ثم جاءتْ به إليك.

وهمَّ الشَّاه بندر بأخذ وَلده والانصراف به ، وَلكنه لاحظ أنه عار من مَلابسه الثمينة التى كان يلْبَسها ، ومنْ حُليه النَّفيسة التى كان يتحلَّى بها ؛ فصرَخَ على اليَهُودى قائلاً :

أينَ ملابسُ وَلدى وحُليهُ التى كانتْ علَيْه ؟ !

فردَّ اليَهُودىُّ ساخطًا حَانقًا :

لم تأتنى به المرأةُ إلاَّ هكذا ، أتسألُ عنْ رداء ابنك وحُليه ولا تهتَمُّ لما أصابنى ؟ ائتنى أنتَ بجوَاهرى ومَالى ، فإنه لا يُطالَبُ بها أحدٌ إلا أنتَ .

واشتَد النزاعُ بينَ اليَهودى وَوالد الطفْل ، وعَلاَ الصياحُ ، وكثر الصراخُ . واجتمعَ النّاسُ من هُنا ومن هُناك يستجلونَ الأمرَ ، ويستطلعُون الخبر . فلمّا عرفُوا ما كانَ انقسموا إلى فريقين يؤيد أحدهما الشاه بندر . ويؤيد الآخرُ اليَهُودى.

هذا يرى أنّ اليَهودىَّ ليسَ لهُ على الشّاه بندر حَق ، فما كان لهُ أن يَسْأمن المرأة المحتالة على جواهره لمجرد أنها تحملُ الطفلَ ابن الشاه بندر .

وفريقٌ يرَى أن الشاه بندر ملزمٌ بمشاركة اليَهُودى فى خسارته ، لأنهُ بإهمال عَائلته وسوء تصرُّف جاريته تمكنتْ المُحتالةُ من اختطاف الطفل لتتخذه وَسيلةً لتنفيذ حيلتها .

وبينما الجمعُ فى مُشاحنَة وجدال ، وأخذ ورَد ، وشد وجذب ، اقتربَ منْ هذا الجمع ثلاثَةُ رجال يتعرّفُونَ الخبر ؛ وما إنْ عرفُوه حتى تقدمُوا من المتشاحنين يقُولون :

لقدْ كُنّا ضحيةً لهذه المرأة المُحْتالة من قبْلكما ، ونحن الآن نطُوف الطرقات فى سبيل البحْث عنها .

فلمّا استفسرهُمْ الجمعُ عنْ أمرهم قصُّوا عليهم قصّتَهم . فعرفوا أنَّ هُناك تاجراً وصَبّاغًا وحمّارًا قد احتالتْ عَلَيهم هذه العجوزُ المحْتالةُ بما هُوَ أفظعُ وأشنَعُ من حيلتها على ابن الشاه بندر واليَهودىّ .

وقالَ اليهودىُّ للتّاجر والصَّبّاغ والحمّار :

بما أنكمْ تبحثون عنْها فخذونى أبحثُ عنْها لأستخلصَ منْها جواهرى وأنتقمَ منها لنفسى .

وقالَ الشاه بندر :

أما أنا فإنى أحمدُ الله على سلامة وَلدى ، وسأعودُ به الآن إلى دارى ، وعند ما تجدونَ العَجوزَ أطالبها بحقى .

وعاد الشاه بندر بولده إلى داره . أما اليَهودى فإنه أغلق دكانه ، وأشارَ على الصبَّاغ والحمَّارْ والتاجر أن يتفرَّقوا فى أنحاء المدينة ليبحثَ كلٌّ منهم فى جهة منْها ، ويكونُ اجتماعهم فى آخر النهَّار فى مَكان تعارفوا عَليْه ، وعَيَّنُوه لأنفسهم ، بالقرُبْ من دكان رجل حَلاق مَغْربى .

وهكذا تفرقوا فى أنحاء المدينة كى يسْهُلَ عليْهم البحثُ عن العجوز التى احتالتْ علَيْهم ، وغرَّرتْ بهم ، وسلبتْ منْهمْ ما سلبتْ .

٤

أمَّا دليلةُ فقد أسكرَها النصرُ ، وأطربَها الفوزُ ، وباتتْ لا تحسبُ حسابًا ، ولا تخشى خشْيَة ، فخرجتْ تَطُوفُ بالمدينة ، وتدور بأرجائها تتَحيَّن الفرص لصيد جديد.

وبينما هى تسيرُ وعيناها تدوران بينَ القريب والبَعيد ، إذْ بها

وجهاً لوجه أمام غريمها الحمَّار الذى كانَ فى طريقه إلى المكان الذى اتفق معَ رفاقه على الاجتماع فيه .

وما إنْ وقعتْ عينا الحمَّار عليْها حتى عرفها ، فأمسك بتلابيبها صائحاً عليها :

أينَ حمَارى ؟ . . . أينَ حمَارى ؟ . . .

وأدركتْ دليلةُ أنها قدْ وقعتْ ، ولنْ ينقذها من الحمَّار إلا الرفقُ والحيلةُ ؛ فتوسلتْ إليه بصوْت خافت قائلة :

يا حَمَّارُ ؛ إن حمارك فى الحفظ والصون ، وقد كنتُ بسبيل ردّه إليكَ لأنكَ رجلٌ فقيرٌ مسكينٌ ، وأنا أحفظهُ لكَ عند الرّجل الطيب الحلاق المغْربى ؛ فتعالَ معى ليُعْطيه لكَ ، ولكنْ لا تظهر أمامَهُ ، ولا أمامَ النَّاس شيئاً ، واستر علىَّ يستر اللهُ عليك .

وسارتْ دليلةُ ومعَها الحمَّار ؛ حتى إذا مَا اقتربا من دكان الحلاق المغْربى قالتْ لهُ :

قفْ أنتَ هُنا بجوار الدكان حتى أكلم الحلاقَ فى شأن الحمَار .

فوقفَ الحمَّارُ بالقرب من دكان الحلاق ، وعينُه على بابه يراقبُه حتَّى لا تُفلتَ دليلة منه . أما دليلةُ فقد دخلتْ إلى الدكان وحيَّتْ صاحبه وعيناهَا تقطران بالدمُوع ؛ وردَّ الحلاقُ تحيتها وسألها :

ما بالك يا سيدتى تبكين ؟

قالتْ :

لأنَّ وَلدى هذا الواقف بالقُرب من الدكان كان حَمَّاراً ، ثم أصيبَ بلوْثة فى عَقْله فهو لا يكُف عن قوله : حمَارى ! حمارى ! حتَّى صَار لا يهنأ لنَا بسببه عيْشٌ ، ولا يرتاحُ لنَا بالٌ . وقد عرضتُ أمرَه على أحد الحكماء فقالَ : إنِ اللوثَة التى أصيبَ بها لا يشفيها إلاَّ أنْ يخلع له ضرسان من أضراسه ويكوى مرتين على أصْداغه . وقد جئتك به فاعمل معى معرُوفًا وائته بالحيلة ، وقل لهُ : إنَّ حماره عندك ، حتى يطْمئنَّ إليك ، وتستطيعَ إدخاله إلى دُكانك لخلع ضرْسَيْه ، وكَىِّ صُدغَيه .

ثم أخرجتْ دليلةُ دينارًا وأعطتْ الحلاق إياه وهى تقول :

اصنَعْ معَى معرُوفًا يا سيدى ، وساعدنى على شفاء وَلدى .

فقالَ لها الَحلاقُ :

لا تحْملى همًّا يا سيدتى ، وفوضى أمرك إلى الله ثم إلىَّ .

ونادى الحلاقُ غلامين عنده وقال لهما :

حَمِّيا لى المسْمارَين الكبيرين ، وأحضرا حبلاً متينًا .

ثم خرجَ إلى باب الدكان ونادى الحمَّار وقالَ له :

تعالَ ياوَلدى ، إنَّ حمارَكَ عندى ، ولن أسلمه لأحد إلا لكَ ، ولنْ تمسك لجامه يد غيرُ يدك .

فأقبلَ الحمَّارُ على الحلاق فرحًا وهو يقول :

أينَ حمَارى ؟ !

فأخذه الحلاقُ من يده ، وأدخله إلى الدكان ، وهُوَ يقُول :
إنَّ حمارَكَ هُنا ، أربطُه بداخل الدكّان .
ثم قاده إلى خلوة فى داخل الدكان ، ولكَمه فى فكه لكمة قويةً جعلتْه يترنحُ ثم يسقطُ على الأرض ، وأسرَعَ الحلاقُ بمعاونة غُلاميه ، فشَدوا وثاق الحمَّار بالحبْل ، وكتَّفوا يديه وقدميْه ؛ ثم فتحوا فمَهُ وخلع لهُ الحلاقُ ضرسين ، وكواه بالمسمارين المحْمَّيين على صُدغَيَه كَيَّيْنْ ، والحمَّار يجأرُ ويصرُخُ ويصيحُ حتَّى أغمى عليه .
والنَّاسُ السَّائرونَ بالطريق لا يلفتُ نظرهم الصراخُ ، ولا يستعير التفاتهم الصياحُ ؛ فهم يعرْفُونَ أنَّ هذا الدكان دكانُ حلاقٍ ، وكثيرًا ما يخلع الأضراس ، وكثيراً ما ينبعثُ من جوْفه الصياحُ والصراخ .
وانتهزتْ دليلةُ فرصةَ انشغال الحلاق وصَبييْه معَ الحمَّار فى داخل الدكان ، فحملتْ من حاجيات الحلاق ما خفَّ حَملُه ، وغلا ثمنُه ، ثم تَسَللتْ إلى الخارج .
ولمَّا أفاقَ الحمَّارُ ممَّا ألمَّ به قالَ للحلاق وهو يئنُّ وَيبْكى :
لمَ فعلْتَ هذا بى يا مَغربى ؟!
فأجابه الحلاق :
من أجل شفائك ، كما طَلَبتْ أمك .
فقال الحمَّارُ متعجبًا :
أهى المرأةُ التى قالتْ لكَ إنها أمى ، وطلبتْ منكَ أن تفعلَ بى

ذلك ؟! ألمْ تقُل لكَ على حمارى ؟

فقال الحلاق :

أعدنا إلى سيرة الحمار ؟

فقالَ الحمَّار :

أنا لا أبرحُ هذا المكانَ حتى آخذَ حمارى . ماذا قالتْ لكَ العجوز بشأن الحمار ؟

فقالَ الحلاق :

أخبرتنى أنكَ مريضٌ ، وأنك لا تكُفُّ عن قولك : حمارى ! حمارى ! فى قيامك وقُعُودك وغُدوكَ ورَواحك ؛ ولذلك أشار عليْها أحدُ الحكماء بكيكَ فى صُدغيْك ، وبتخْليع ضرسين من أضراسك ، حتى تبرأ مما أنتَ فيه .

فلم يتمالكْ الحمَّارُ أن صرخَ على الحلاق بقدر ما استطاع أن يْصرخ من فَمه الجريح يَقول :

إنَّها امرأةٌ نصَّابةٌ ، وليستْ بأمى ، نصَبتْ عَلىَّ وأخذتْ حمارى ، أين هى ؟! ائتنى بها .

وخرجَ الحلاق والحمَّارُ يبحثان عن دليلة ، فلم يجدا لهَا أثرًا ، وإنما رأى الحلاقُ ما حَلَّ بدكَّانه من نهْب أدواته وسرقة حَاجَاته ، فأمسكَ بتلابيب الحمَّار وهُو يقُول له :

إنها لحيلةٌ عملتُماهَا عَلىَّ أنتَ وأمك لتسلبا مالى ، وتنهبا دكانى

أينَ أمك ؟ ائتني بها ، فما أطلبُ حَاجَاتي وأدواتي إلا منك !

فقالَ الحمَّار :

قلتُ لكَ إنها نصَّابة نصبَتْ عَلَيَّ وعَلى ناس كثيرين غيري .

ولكنَّ الحلاَّقَ لم يقْتنع بكلام الحمَّار ، ولم يُصَدقْ حجتَّهُ بلْ ظلَّ متشبثًا به متعَلقًا بتلابيبه وهُو يقُولُ لَه :

ما أطلُب حَاجَاتي إلاَّ منْك !

واجتمعَ الناسُ على صَوت المشَاحَنة والعراك ، وأتى فيمَن أتى التَّاجرُ حسَن والصَّباغُ واليَهُودى ، وكانُوا قدْ جَاءوا إلى هذا المكان لاجتماع بعْضهم ببعْض ، وعَلى حسَب اتفاقهم ، ليرَوا مَنْ منهم استطاعَ أنْ يعثر على أثر للمُحتالة التي احتالتْ عليْهم ، ومَنْ منهم تيسرَ لهُ الاهتداءُ إليها . فوجدوا الحمَّار يتشاحن معَ الحلاق المغربي وهُوَ مكوِي الصُّدغيَن ، والدمُ يسيلُ منْ فمه . فسألوه عَمَّا به ، فحكى لهمْ ما جرَى ، فقَصَّ كل منهمُ على الحلاق قصتَّهُ ، وأفهمُوه أنهم جميعًا كانوا ضَحيةً لهذه المرأة المحتَالة .

فقالَ الحلاق :

وما يُقْعدكم عن مُطَالبة الوالي بما لكمْ ، هَيَّا بنا إليْه فمَا نطلبُ حاجاتنا إلاَّ منه .

وأغلَق الحلاقُ دكَّانه ، ثم ساروا جميعًا يقصدُون الوالي .

وقالَ لهمْ الوالي عند ما ذهبُوا إليْه :

إنَّ رجالى يَبْحثون عَنْ هذه العجوز التى تصفون ، ولكنَّ العجائزَ كثيراتٌ ومتَشَابهاتٌ .

فقالُوا له :

نحنُ نعرفُها ، أعطنا نفرًا من رجالكَ ليُسهلُوا علَينا البحْثَ ، ومتى وجدْناهَا تعرفنا عليها .

فأمر الوالى عشْرَةً من رجَاله بمصَاحبة هؤلاء الشَّاكين ومُعَاوَنتهم فى البحْث عَنْ غريمتهم العجوز .

وطَال البحثُ بالباحثين وهمْ يجوُبون الطرقات ، حتى التَقوْا بدليلة ، وتعرَّفوا علَيْها وأمسكوا بها ، وساقوهَا إلى بيْت الوالى .

وفى بيت الوالى أخبرهُم الحُراسُ أنَّ هَذا الوقْتَ الذى جاءوا فيه هُو ميعاد نوْم الوَالى ، ودعوهم إلى الانتظار بفناء الدار حتى يَسْتيقظ الوالى من نوْمه فيعرضُوا علَيْه أمرهم .

فدخَل التاجرُ حسنٌ وصحبهُ الأربعة : الصَّبَّاغُ والحمَّار والحلاق واليَهُودى ، ومعَهم دليلةُ والشرطةُ أتباعُ الوالى إلى فناء الدار للانتظار فيه حتى يصْحُوَ الوالى من نومه ، ويستدعيهم إليه .

وجلَسَتْ دليلةُ وأسندتْ رأسها إلى الحائط وتظاهرتْ بالنَّوم ، وكان الرفاقُ الخمسةُ ومنْ معهمْ من أتباع قد برَّحَ بهم التَّعب ، وبلغ بهمُ الإعياء مبلَغًا عظيمًا ، من كثْرة طوافهم فى الطرقات ، وتجوالهم هُنا وهُناك للبحث عنْ دليلة ، فما كادوا يجلسون همُ الآخرون حتَّى

شعَرُوا بارتخاء أجسامهم ، وثقل رُءوسهم ، ثمَّ لمْ يَلْبثوا أن استغرقُوا فى نوم عَميق .

ورأتْ دليلةُ ما حلَّ بهم ، فنهضَتْ قائمةً تلتمسُ لها طريقًا للفرار ، ولكنَّ بابَ الدار كان يقفُ عليه الُحراسُ الذين يُلمون بقصَّتها ، ويعْرفون أنها متهمةٌ جىء بها للمحاكمة لدى الوالى ، فمنْ أين المفرُّ ؟

ووَقفَتْ دليلةُ تفكرُ فيما يجبُ أن تتخذَ من تدبير ، وتستنبطَ من حيَل ، ومنْ ثمَّةَ لم تجِدْ أمامها إلاَّ أن تتَّجه إلى داخل دار الوالى لعلَّها تعثر هُناك على مخرج لها .

واتخذتْ دليلةُ طريقها إلى داخل دار الوالى ، وهُنالك قابلتها جارية استفهمتها عَنْ أمرها ، فقالتْ دليلة :

إنى أبغى مُقَابلة زَوْجة الوالى لأمر هام .

فقادتها الجاريةُ إلى مجْلس سيدتها زوجة الوالى ، واستأذنتها فى دخول دليلةَ إليها ، فأذنتْ لهَا ، فدخلتْ دليلةُ . وبعَد أنْ حيَّتْ دعتْها زوْجة الوالى إلى الجلوس ، واسْتَفسرتْها عن أمرها ، فقَالتْ لهَا دليلة :

يا سَيدتى ؛ أنا وابنى تجَّارُ رقيق ، نستَجلبُ ونَبيع المماليك ، وقد أوصَانى سيدى الوالى منذُ بضْعة أيام أن أجْلبَ له خمسةَ مماليكَ بمبلغ ألف دينار غيرَ عمُولتى . وقد وقعَ فى يدى خمسةُ ممَاليك ، يُساوى الواحدُ منهم ألفَ دينار ، وتقدم إلينا منْ يريدُ شراءهم ،

ولكنى رفضتُ أنْ أبيعهم إلاَّ للوالى إكرامًا لَهُ . أما ولدى فقد أغراه ما عَرَضَ الرَّاغبوُن فى الشراء من ثمن غال ، وأراد أن يبيعَ لهم المماليك ، وَلكنى استطَعْتُ أن أصْحبَ المماليك ، وأنْ أجيء بهم إلى هُنا ، فتبعنى وَلدى ليسْتَخلصَهم منْ يدى ، ولكنى دخلتُ بهم إلى داركم قبلَ أن يلحَق بى ويعُوقنى .

وكانَ من حسن حظ دليلة ومن مُساعدة الظروف لها أنَّ الوالى كانَ قدْ أوَدعَ لدى زَوْجته ألفَ دينار على ذمة شراء مماليك بها ، فقالتْ زوَجةُ الوَالى لها :

حقًّا ؛ إنَّنا نريدُ شراء مماليك، ولكن الوَالى نائمٌ الآن، فانتظرى حَتَّى يصْحوَ منْ نومه ويُعاينَ المماليكَ ويُعْطيك الثمن .

فقالتْ دليلة :

إنَّنى الآن فى عَجَلة من أمرى ، والدار أمان يا سيدتى ، فاسمحى لى أنْ أنصرفَ ، وأترك المماليك هُنا حتَّى يعاينهم الوالى ، ثم أمر عليْكم لأقبض ثمنهم فى فرصة أخرى .

فقالتْ زوجةُ الوالى :

وأينَ هم المماليك ؟

فقالتْ دليلةُ :

هُمْ يا سيدتى بفنَاء المنزل تحتَ نوافذ دارك ، فأطلّى عليْهم من نافذتك ، وشاهديهم وعَاينى وَجَاهتهم .

فأطلَّتْ زوجةُ الوالى من النافذة ، فوجَدتْ التَّاجرَ حسنًا بجماله وأبَّهته ، وَوجاهة ملابسه يجلسُ تحتَ النَّافذة مسنداً رأسَه إلى ذراعه ، وبجانبه يجلسُ بقيةُ رفاقه : اليَهُودى والصبَّاغُ والحلاقُ والحمَّار ، وجُلهم يرتدى ملابسَ نفيسةً ثمينةً ، فأعجبتْ زوجةُ الوالى بهم ، وقدرتْ أنَّ ثمنهم يزيدُ عن ألف دينار ، فقالتْ لدليلةَ :

ما عَليْك من بأس أن تبيعيهم الآن وتأخذى ثمنهم ، وتَبقى عُمولتك لتأخذيها بعدَ ذلك من الوالى .

فقالتْ دليلةُ :

هَذا رأىٌ حسنٌ يا سيدتى ، انقدينى ما تشائين من الثمن ، والباقى أحضر لأخذه بعد ذلك من الوالى ، ولكنَّ لى عندك رجاءً أرجو أن تحققيه لى ، وهو أنْ تسمحى بانصرافى من باب السر حتَّى لا ألتقى بوَلدى الذى ينتظرُنى بالباب .

فقالتْ زوجةُ الوالى :

لك ذلك .

ثم نهَضتْ ، فأحضرتْ ألفَ دينار ، وأعْطتْ دليلةَ إياها ، واستْدعتْ جارَيتها وأمرتْها أنْ تصْطحبَ دليلةَ حتَّى تخرجها من باب السر .

فصَحبتْ الجاريةُ دليلة ، وسارتْ وإيَّاها حتَّى أخرجتها من الدار بسَلام .

ولما استَيقَظَ الوالى من نومه أتَتْهُ زوجتُه قائلةً :

تهنئى لكَ بالمماليك الخمسة الذين اشتريْتهم .

قالَ :

أىُّ مماليك ؟

قالتْ :

الذين أوْصيْتَ عليهم التاجرةَ العجوزَ ، فقد أحضرتهمُ أثناء نوْمك فعاينْتهُم أنا من النافذة وأعطيتها الألفَ دينار التى كنتَ تحفظُها عندى بنية شراء مماليك ، وعُمولتُها أجَّلْتُها حتى تصْحُو فتأمرَ لهَا بهَا .

فقالَ الوالى بعَجَب :

إنَّنى لم أوص أيَّةَ امرأة أو تاجرة بشراء مماليك . . . أين هؤلاء المماليك ؟ !

قالتْ :

ها هُمْ أولاء يجلسُون بفناء الدار تحتَ النافذة ، وقد أرسلتُ الجاريةَ إلى رئيس المقدمين أوصيه بهم خيرًا .

فقالَ الوالى :

لاَ بُدَّ من أنْ أنزلَ إليهم لأرَاهم .

ونزلَ الوالى إلى فناء داره ، فقابله رئيس المقدمين الذين قبَضُوا على دليلةَ مع التاجر حسن وإخوانه ، فقال له الوالى :

أينَ المماليك الخمسةُ الذين اشتريناهم ؟

فقالَ الرجل :

لا علمَ لى بالمماليك يا سيدى ؟ !

فقالَ الوالى :

أليْسُوا هُنا يجلسون بفناء الدَّار ؟

قالَ الرجُل :

لاَ أحد هُنا يا سيدي غير الخمسة الرجال الذين كُنَّا نُصَاحبهم للقبض على المرأة المحتالة ، فلمَّا قبضْنَا عليْها جئنَا بها إلى هُنا ، وجلسنا ننتظرُك حتى تصحوَ من النَّوم فنعرْضَ أمرها عَلَيْك، فأخذتنا سنةٌ من النَّوم ، فلمَّا هبَبْنا لم نجد المرأة فسألنا عنْها فقيل لنَا إنها بحضرة السَّيدة، ثم أرسلَتْ لناالسيدةُ توصينا خيرًا بالخمسةالرجال الذين جاءتْ بهم المرأةُ .

ونَظَرَ الوالى إلى التَّاجر حسن ورفاقه وقال :

إذن ؛ هؤلاء الخمسةُ هم الذين اشتريتهم بمالى ! !

فَصَاح التاجرُ حسن وإخوانه يَقُولون :

نحنُ أحرارٌ لا نُباعُ ولا نُشترى . إنَّ هذه اللعْبة قدْ لَعبَتْها عَلَيْكمْ العجوزُ المحتالةُ ، كما لعبتْ أمثالها علَينا من قَبل .

فقالَ الوالى :

لولاَكُم ما دخلَتْ العَجوزُ بيتى ، ولا اتَّصلَت بحريمى ، ولا سَلَبتْ مَالى .

فقالُوا :

ليسَ لنا بكُل ذلك شأن .

ثم قالَ بعضهمُ لبعَض :

هيَّا بنَا إلى الخليفة فهُوَ مُنْصِفُنا منك .

٥

فى هذه الفترة التى مرَّتْ كانَ الأميرُ حسنٌ – زوجُ خاتونَ التى احتالتْ عليْها دليلةُ فى أوَّل الأمْر وسلَبتها ملابسها وحُليها – قد جاءَ من سفره ، وقصَّتْ عليه زوجتُه ما كانَ بينها وبَيْن المحتالة ، فغضبَ لذلك أشدَّ الغضَب ، وأسرعَ إلى بيت الوالى وهو يقول :

لا يلزَمُ بذلكَ إلاَّ الوالى ، فهوَ المسئولُ الأوّلُ عن الأمن ، وسلامَة أموال النَّاس وأرواحهم .

وكانَ وصولُه إلى بيت الوالى فى الوقت الذى كانَ فيه التاجرُ حسنٌ ورفاقه يتشاحنونَ فيه معَ الوالى ويُطالبُونه بالذهاب مَعَهم إلى الخليفة .

وقالَ الأميرُ حسن للوالى :

كيفَ تكونُ واليًا على المدينة ، وتتركُ العجائزَ يسرَحْنَ ويمرَحن بها ويَنْهبنَ أموالَ النَّاس ؟ !

فقالَ الوالى :

إن رجَالى كانوا لا يعرفُون العَجوز ، فلما أرسلْتهُم معَ هؤلاء الخمسة الذينَ يعرفُونها قبَضُوا عَليْها وجَاءوا بها ؛ ولكنَّها فرَّت منهم بعدَ أن احتالتْ على أهل البيْت ، وأنا على استعداد لإعطائكم من رجَالى ما تطلُبُون فى سبيل البحث عنها من جَديد .

فقبِل الأميرُ حسنٌ ما عرَضَ الوالى من رَأى ، وقال للوَالى :

هات الرجَال حتى أوزعَهم عَلى أرجاء المدينة للبحث عن تلك العَجُوز الداهية .

فجاءهُ الوالى بما طلَبَ من رجال ، فقسَّمهم الأميرُ حسنٌ إلى جماعات جَعَلَ على كل جماعة رجُلاً من الرجال الخمسة الذين احتالتْ عليهم دليلةُ .

وبينما جماعةٌ من هذه الجماعات تطوفُ يومًا بناحية من نواحى المدينة وعلى رَأسها الحمَّارُ ، إذْ به يُشاهدُ دليلة تسيرُ فى الطريق ، فعرفها رغمَ حَذرها وتنكرها ؛ فأمرَ من مَعه من الرجال بالقبْض عليْها ، فأمسكوُها ، وأتوْا بها إلى الوالى فى الحال .

وشاعَ بينَ النَّاس أمرُ القبض على عَجُوز محتالة تُدعَى دليلةَ ، فعرف التَّاجرُ حسنٌ ورفاقُهُ ومن مَعَهم من رجال الوالى بالخبر ، فأسرَعُوا إلى بيْت الوالى يتعرَّفُون صحتَّه ، فوجدوا الوالىَ يُحققُ معَ دليلةَ ويسألهُا :

أينَ حاجاتُ الناس التى سَلَبتها أيتها العجوزُ التى أزْعجت الآمنينَ والآمنات ؟

ودليلةُ لا تجيبُ إلاَّ :

ما رأيتُ ومَا أخذتُ شيئًا .

فقالَ الوالى لسجَّانه :

خذْ يا سجانُ هذه العجوزَ واسجنها ، وتحفَّظْ عليْها حتَّى نجلدها إذا لمْ تعترفْ .

فقالَ السَّجَّان :

يا سَيدى ؛ إنَّ هذه المرأة ليستْ ككلّ النساء ، ولا ككل الرجال الذين أقومُ بسجنهم ! . . إنى أخافُ أن تعمَل حيلةً تفرُّ بها من السجنْ وأكونُ أنا مُلزَمًا بها .

فقالَ الوالى :

اسحَبُوها إذنْ حتى نصلبها خارجَ المدينة ما دامتْ لم تُقر بما فعَلَتْ .

وركبَ الوالى حصانه ، وسَاق رجاله دليلةَ ، وسارُوا جميعًا إلى ظَاهر المدينة حيثُ كانَ هُناك عمودٌ مُعَدٌّ لصلب المجرمين والقَتَلَة . فأمرَ الوالى بصَلْب دليلة فيه . فصَلبها الرجالُ ، وأحْكمُوا وثاقها ، وانصرَفَ الوالى عائداً هوَ ومَنْ معَهُ بعد أنْ تركوا لملاحظة دليلةَ وحراستها عشرةً من الرجال الأشداء .

وأمْسى المسَاء ، وأقبلَ الظلامُ ، وجنّ الليلُ ، ودليلةُ فى مَصْلَبها وحُراسُهَا بالقرب منها يتحدّثون ويسْمُرُون ، حتَّى إذا ما انتصفَ الليلُ قلَ فيما بينَهم الحديثُ ، وخَفَتَتْ منهمُ الأصَواتُ ، ثمّ لمْ يلبثُوا أن طَافَ بأجفَانهم طيفُ النَّوم ، فمالَ بعضهُم على بَعْض ، ومنْ ثمَّةَ توَسَّدوا أذرعتهم ثم رَاحُوا فى سُبَات عميق .

وقبيل الفَجر سمعتْ دليلةُ التى لم يطرُق جفنَهَا النومُ لما هىَ فيه من ألم وعَذاب ، صوتَ حَوافر دابة مقبلة من جهة الصَّحراء نحوَ المدينة ، فأنْصَتَتْ تتسمَّعُ . فسَمعتْ صوت قائل يقول ، وكأنهُ يُنْشد :

آه يا زَلابيَة ! يَا زَلابية . . . ! آه كمْ أنا جَوْعان ، ولكنى لنْ آكُلَ شيئًا حتَّى أدخلَ المدينةَ وأذوقَ الزَّلابية ! . .

فأدركَتْ دليلةُ من الصَّوت أنهُ لرجُل بدوى يبْغى دخولَ بغْداد ، ويَشْتهى أكلَ الزَّلابية .

فجَعلَتْ تئنّ وتتَأوّهُ ، فلمَّا جَازَ بها الراكبُ وسَمعَ التأوه والأنينَ ، توقّفَ عن سَيْره ينْصتُ ، ثم اتَّجه نحوَ الصَّوت ، فرأى دليلةَ ، وهيَ مصلُوبةٌ على العَمُود ، مشدودةٌ بالحبال فاستعْجَبَ وقالَ ، فى صَوْت خافت :

مَنْ هُنا ؟! ومَا هَذا ؟!

فردّتْ دليلةُ بصوْت خَافت :

أنا في جيرَتك يا شيخَ العَرب .

فقالَ الرَّجُل :

أجارَك اللهُ مما أنت فيه ! . . مَن أنت ؟ . . وما سَببُ صَلْبك ؟

قالتْ دليلةُ :

أنا عجوزٌ مسكينةٌ من أهالى بغداد . أمَّا سببُ صَلْبى فبَسيط ، وهو أنى كنتُ أسيرُ بالطريق ، فمررْتُ منْ أمام دكان رَجُل يبيعُ الحلوى ويقلى الزَّلابية ، وصادفَ أنى بصَقْتُ ، فجاءت بَصْقَتى على الزَّلابية ، فأمسكَ بى الرَّجلُ صاحبُ الدكان ، وساقنى إلى الحاكم وقالَ له :

هذه المرأةُ بصَقتْ على زَلابيتى أمامَ النَّاس .

فسألنى الحاكم :

لمَ بصقْت على الزَّلابية ؟ ألا تُحبينها ؟ !

قلْت :

أنا لم أبصقْ عليْها متعمدة ، بل كانَ ذلكَ على غير قصْد منى . ولكنَّ بائعَ الحلوَى كان رَجلاً فَظًّا قاسيًا ، يكرهُنى ويحقدُ علَىَّ ، فعارضَنى وكذَّبنى وقال :

إنَّها بصَقتْ على الزلاَبية عامدةً متعمدةً قائلةً : إنى أكرَهُها ، وشَهد علَىَّ الشهُودُ بأنى لا آكُلُ الحلوى كثيرًا ، فصَدقهم الحاكم وحكمَ علَىَّ بأكل عشرة أرطال زَلاَبية بعسَل وأنا مصْلُوبة ، فإن

أكلتها أطلَقُونى ، وإن لمْ آكلها تركُونى مصلُوبةً ، وأنا نفْسى لا تقبَلُ الُحلوَ ؛ ولن أستطيعَ أكلها .

فقال البدوى :

يا للصُّدف العجيبة . . ! وذمة العَرب إنَّنى ما أتيتُ من النَّجع إلاَّ لكىْ آكلَ زَلابيةً بالعَسَل . متى يجيئُونَ لك بها ؟ وأنا آكلها بدلاً عَنْك .

قالت :

سَيجيئونَ بها الآن قبلَ مطلَع الفجْر ، ولكن كيف تأكُلُها بدلاً عَنى ؟ ! إنهم سيُطْعمونى إيَّاها وأنا مصلُوبةٌ هكذا ، ولنْ يستطيع أكلها إلا من اتخذَ موضعى .

فقالَ لها البدوى :

أنا أحُلُّ وثاقك ، وأتخذُ موضعك ، وآكلُ الزَّلابية بدلاً عنك ، وإن عرفونى فليكن ما يكون .

قالتْ دليلةُ :

إذن ، أسرعْ فحلَّ وثاقى ، واتخذْ موضعى قبلَ أن يحضرُوا إلى بالزَّلابية ، باركَ اللهُ فيكَ يا أخَا العَرب .

فحلَّ البدوى وثاقَ دليلة ، واتخذَ موضعها ، فقيدتهُ فيه بعدَ أن أعطاها عَباءته ، وسَلَّمها فرَسَه ، لتنْتظرَهُ بهما فى مكان قريب .

وسحبتْ دليلةُ الفرسَ حتَّى إذا ما ابتعدتْ عن البدوى تلفَّعتْ



إنى ما أتيت من النجع إلا لكى آكل زلابية بالعسل...

بالعباءة ، وركبتْ الفرَس ، وسارت بها متَّجهةً نحو المدينة .

ومعَ الفجْر استيقظ أحدُ الحرَّاس المكلَّفينَ بحراسة دليلة ، فوجد أصحابهُ بجانبه نيامًا ، ولم يَسمعْ لدليلة حسًّا ، فأوجسَ خيفةً ، وخافَ أن تكونَ قد فرَّتْ أو ماتتْ ، فسارَ إلى مصْلَبها ونادى عَلَيْها قائلاً :

دليلة . . . ! ! دليلة . . . ! !

فقال البدوى :

أنا مَا أريدُ بَليلَة . . . أنا أريدُ زلابية . . .

فتعَجبَ الحارسُ لسماعه صوتَ البَدوى ، فتقدَّمَ منهُ ، وتفَرَّسَ فيه ، ثم قالَ لَهُ وقد ازداد عجَبًا ودهْشَةً :

من أنتَ ؟ وأينَ المرأةُ التى كانَتْ مصلُوبةً هُنا ؟ !

فقالَ البَدوى :

يا أخا العَرب ؛ أنا فَككتُها ، وحَلَلْتُ محلَّها ، لآكلَ الزَّلابية عِوَضًا عنها ، فهى امرأةٌ عجُوزٌ لا تستسيغُ نفسُها أكل الحلو .

فأدركَ الحارسُ أن دليلة قد لعبتْ لُعبةً على هَذا الرَّجل البدوى وفرَّتْ هاربةً ، فأسرعَ إلى رفاقه يوقظهم من نَوْمهم ، ويُعرفهم بما جرَى .

وأسقطَ فى يد الحرَّاس ، وحَارُوا فيما يفعَلون ، فعَمَّا قليل سيأتى الوالى ليرى نتيجةَ صَلْب دليلة ، وهلْ هىَ أقرَّتْ بما فَعَلتْ ، واستعدتْ

للإرشاد عمَّا سلَبتْ فيخلي سبيلها ، أم أنها لا تريد الاعترافَ فيدعها في مَصْلبها أو ينقلها إلى أحد السجون .

وتساءلَ الحراسُ :

أنفرُّ قبل أن يأتي الوالي ؟ أم نظلُّ كما نحن ، ونتقبَّلُ مصيرنا كيفما يكون ؟ !

وبينما هُمْ كذلك في أخذ وردّ وتساؤل وحيرة ، إذ أقبلَ الوالي وجماعتُه عليهم ، وقال لهمُ :

أنزلُوا دليلة . . .

فقالَ البدويُّ :

ما أريد بليلة ، أنا أريدُ الزّلابية بالعسَل .

فَقَدْ ظَنَّ البدويُّ أن الواليَ وجماعتَه هم الجماعةُ المكلَّفون بإحْضَار الزلابية ، وأنهم قد أحضرُوا عوضًا عنها بليلةً .

ونظرَ الوالي إلى المصْلَبَة ، فوجدَ البدويَّ مصلُوبًا فيها بدلاً من دليلةَ ، فسأل الحرّاس مُنكرًا ما رأى :

ما هذا ؟ !

فتقدمُوا منه قائلين :

أعطنَا الأمَان يا سيدنا الوالي .

قال :

تكلَّمُوا ، ماذا جرَى ؟ !

قالُوا :

لقدْ سهرنا بجانب دليلةَ حتى انتصفَ الليلُ ، فأخذتنا سنةٌ من النَّوم ، فنمنا على اعتقاد أنَّ دليلة فى مصلَبها لا حول لها ولا قُوَّة ، واستيقظنا معَ الفجْر فوجدنا هذا الرجلَ البَدوىَّ مصلُوبًا بدلاً منها .

فاقترَب الوالى من البَدوى وسَأله :

ما أمركَ يا رَجل ؟ ! مَن الذى صَلبَك هُنا ؟ ! وأينَ المرأة المحتالةُ التى كانتْ مكانكِ ؟ !

فقصَّ البدوىُّ ما كانَ من أمره مع دليلة ، فأمرَ الوالى بإنزال البَدوى ، فلما أنزلُوه تعلَّقَ بثياب الوالى وهو يبْكى قائلاً :

أريدُ ثيابى وفرَسى .

فنهرَه الوالى بقوْله :

أمايكفيكَ ما سببتَ لنَا من تعبَ وحرَج بعَملك على إفلات دليلة من يدنا بعدَ أن أعيتْنا الحيلُ فى القبض عليها حتى تطالبنَا بثيابك وفرسك !

وفى هذه اللحظة أقبلَ التاجر حسن والصباغُ والحمارُ والحلاقُ واليهودىُّ ، وما كادوا يلمُون بما جرَى ويعلَمون بإفلات دليلةَ حتى صَاحُوا على الوالى قائلين لَه :

ليسَ لنَا بما حصَل شأن . لقد قبَضْنا على العَجُوز المحتالة ، وسلَّمناهَا لكَ ، فصارَتْ بذلك فى عُهدتك ، فالآن لا نلْتزم حاجَاتنا وأموالنا إلا منك .

قال :

لقد أصَابنى من هذه العجوز المحتالة مثلَ ما أصَابكم ، وقد أعيانى خُبثُها ومكرُها .

قالوا :

هيَّا بنا إلى الخليفة ، فهو الذى يَفْصلُ بينَنا وبينَك .

خرجَ الوالى وضحايا العجوز إلى الخليفَة ، وهُناك فى مجلس الخليفة كانَ الأميرُ حسن زوجُ خاتون وصاحبُ ديوان الشرطة بحضرَة الخليفة ، عند ما حضرَ الوالى وجمَاعتُه ، والتاجرُ حَسن ورفاقُه ، لعرض أمرهم وبيان خصَامهم له .

وبينَ يدى الخليفة سرد كل منهم قصتَّهُ وبين حَاجتَه ؛ فقال الخليفةُ للأمير صَاحب ديوان الشرطة :

أتتعهدُ بهذه المرأة المحتَالة أيها الأمير ؟

فقالَ الأميرُ حسن :

يا مولاَى ؛ إنَّنى صاحبُ حق مثلهم ، وأحقُّ الناس أن يتعهدَ بها الوَالى .

فأسرَعَ الوالى يقول :

يا مولاى ؛ أعفنى من هذه المهمَّة ، لقد قبَضْتُ على هذه المرأة ، ولكنَّها فرَّتْ منى ومن رجالى .

فقالَ الخليفةُ :

ومن تَظنُّ أولى بأن أعهدَ إليْه فى البحث عنْها سواك ؟ !

فقالَ الوالى :

اعهد بذلك إلى أحمد الدنف ، فإنَّ لَهُ فى الشَّهر ألفَ دينار ، وإنَّ لهُ من الأتباع أربعين تابعًا .

قال الخليفةُ :

علَىَّ بأحمد الدنف .

فلمَّا حضرَ قالَ له :

قد وكلتُ إليكَ وإلى جَماعتك القبض على المرأة العَجُوز المحتالة المسماة دليلة .

فقالَ أحمدُ الدنف :

سمعًا وطاعةً ، قد تعهدتُ لكَ بذلكَ ، وأنا لهَا . . .

٦

وسارَ أحمد الدنف إلى إيوانه ليجتمعَ بأعوانه ، كما أرسلَ إلى حسن شُومان مقدم الميسرة ليستشيره فيما يجبُ عليهما اتخاذه للقبض على دليلة . ولما اجتمعَ جمعُهم قالَ أحمدُ الدنف لحسن شومان :

بماذا تُشير يا حَسن ؟ ماذا نتبعُ من الطرُق للقبض على دليلة ؟ إنَّ هذا امتحانٌ لى ولك ، وبقاؤنا فى عَملنا متوقفٌ على نجاحنا فى

القبض على دليلة المحتالة .

فقالَ أحدُ مساعدى أحمد الدنف – واسمهُ عليٌّ كتِف الجمَل :

لماذا لا تستشيرُ غيرَ حسن شومان ؟ ! هلْ حسن شومان يزيدُ عنّا خبرة ، ويبرعُ فى استنباط الحيلة ؟ !

فقالَ حسن شومان :

هل تريدُ بقولك هذا يا على الحطَّ منْ شأنى ؟ ! والانتقاصَ من قَدرى ؟ ! قسماً بالله إنى لنْ أشارككمُ فى هذا المجلس برأى ، ولنْ أخرجَ معكمُ فى هذه المرَّة إلى بحث .

ثم نهضَ فغادر المكانَ ساخطاً غاضباً .

فقالَ أحمد الدنف لعلى كتف الجمل :

أهكذا تغضبُ حسن شومان يا على ؟ !

إنه صديقُنَا ورفيقنا ، ومُعينَنا فى الأزمات ، وملجؤنا فى النكبات !

قال على :

يا مُعَلمى ؛ إنى ما أردتُ إغضابه ، ولكنى أنا ساعدك الأيمنَ فشاورنى كما تُشَاوره .

قال أحمدُ الدَّنف :

وبماذا تُشير ؟

قال على :

نُقَسم أنفسنا إلى عشرات ؛ على إحداها أنت ، وعلى الثانية أنا ، وعلى الثَّالثة والرَّابعة من يقع عليهما اختيارك . ونقَسمُ المدينةَ فيما بَينَنا أقسامًا ، ثم نبحثُ فى شَوارعها وأزقَّتها جميعها فى وقت واحد وبذلك نُضيقُ الخناق على المرأة المحتالة ، فيَتَيَسرُ لنَا القبضُ عليها .

وعلى هَذا قسَّموا أنفسهم ، وسَارُوا للبَحث عن دليلة بعد أن اتَّفَقُوا على الالتقاء فى مكان مُعيَّن فى سَاعَات حددوها فيما بينهم .

وكان الخبرُ قد ذاع وشَاعَ فى المدينة بأنَّ الخليفةَ قد عَهدَ إلى أحمد الدنف فى البحث عن امرأة محتالة اسمُها دليلة ، فقالت زينب لأمها :

أرأيت يا أمى ؟ ! هَذا أحمدُ الدنف الذى ما فعلت هذا كلَّه إلا نكاية فيه ، قد خَرجَ للقبض عَلَيك .

فقالتَ دليلةُ لابنتها :

يا بنتى أنا ما أخاف أحمدَ الدنف ، ولكنى أخافُ حسن شُومان ، فإنَّهُ هُو الذى يَعرفنى ، ويعرفُ أينَ أقيم .

فقالت زينبُ :

والله يا أمى لأهزأنَّ لك بأحمدَ الدنف وأتباعه ، وأجعلهم موضعًا للضحك والسخرية ؛ لا تبرحى أنت الدارَ وسوفَ ترْين ما أنا فَاعلة .

وتزَّينت زينبُ وتعَطَّرتْ ، وائتزرت بإزارها ، ثم غَادرت الدارَ .

وسارَتْ زينبُ حتَّى أتتْ إلى رَجُل تاجر عَطَّار ، لهُ دارٌ

خالية يتخذُها مخزنًا لبعض تجارته وموضعًا يصنعُ فيه ما هُوَ فى غنًى عنهُ من الصَّناديق والعلب . فقالتْ لهُ :

هلْ لكَ يا سيدى أن تؤجرنى بعضَ قاعات من دارك الخالية لمدة يوم واحد ، لأنَّ أخى وَفَدَ عليْه جماعةٌ من التجار ويُريدُ أن يُولمْ لهمْ وليمةً ، ودارنا صغيرةٌ ضَيِّقةٌ .

ثم أخرجتْ زينبُ من جَيْبها دينارًا ودفعته إلى الرّجل قائلة :

وهاك دينارًا أجرةَ هذا اليوم الذى سأحتَاجُ فيه إلى دارك . وفى آخر النهار أعيدُ إليك المفاتيح .

فقالَ العطارُ :

يا ابْنتى ؛ انزلى أنت وأخوك وضيوفُ أخيك بالدار على الرحب والسَّعة . وامكثُوا فيها ما تَشاءونَ أنْ تمكثُوا .

ثم قامَ العَطَّار وزينبُ إلى الدار ، فأخلىَ لها بعضَ قاعاتها ، وسلمها مفاتيحها ، وانصرف .

فعادتْ زينبُ إلى دارها ، فحملت على الحمار والفرس اللذين سلَبتهما أمها من الحمَّار والبدوى بعضَ المفرُوشات والأوانى ، وابتاعتْ بعضَ الأطعمَة والمشروبات ، ثم عادتْ إلى الدار التى استأجَرتها ففَرشتْ أربعَ قاعات منها ، ووضَعتْ فى كل قاعة بعضَ الأوانى والطعام والشَّراب ، ثم خرجَتْ فوقفَتْ على باب الدار دوَن حجاب أو إزار .

وما هى إلاَّ برهَةٌ وجيزةٌ حتَّى دخل إلى الحارة التى بها الدار التى

استأجرتها زينبُ علىَ كتف الجمل معَ أتباعه العشرة فى طوافهم للبحث عن دليلة ، فما إن رأتهم زينبُ وهى بموقفها بباب الدار حتى أشارتْ إلى على ، فلما جاءهَا سألتْه :

أ أنتَ يا سَيدى المقدمُ أحمدُ الدنف ؟

فقال لهَا على :

لاَ ، ولكنى من رجاله ، واسمى على كتَف الجمل . هلْ من خدمَة نؤدِّيها ؟

قالت :

اعلمْ يا سَيدى أن أبى كانَ خمَّاراً بالموْصل ، وماتَ بعدَ أن خلَّفَ لى مالاً وفيرًا ، فخفتُ من اضطهاد النَّاس ، وظلم الحكَّام ، فجئتُ إلى هُنا لأزَاول عَملَ أبى ، وسألتُ : من يحمينى هُنا فألجأ إليه ؟

فقيلَ لى : لا يحميك فى هَذا البَلَد إلا المقدم أحمدُ الدنف .

فقالَ لهَا على :

ستكُونينَ إنْ شاءَ اللهُ عن قريب فى حمَايَته .

فقالتْ زينبُ :

بشَّرَك اللهُ بالخير يا مقدم على . ألا سَمَحتَ فشرَّفْتنى أنتَ ورجالك بتنَاوُل شىء من الطعام أو الشَّراب على مائدتى ؟

فقالَ على :

بَل الشَّرَفُ لنَا فى ذلك يا سيدتى .

فأدخلَتهم زينبُ إلى إحدى القَاعات التى فَرشَتْها ، وأحضَرتْ لهمُ الطعَامَ . وصبَّتْ لهم الشَّرابَ الذى أعدته لهمُ ، فما كادوا يشربُونه حتى مالتْ رءوسُهم فوقَ صُدورهم ، ثُمَّ استلْقَوا فى سُبات عَميق .

ونظَرتْ زينبُ إليهم ضاحكةً شامتَةً ، ثم حملَت الطَّعام والشَّرابَ إلى قاعة أخرى . وأذابتْ بإناء الشَّراب قرصًا من البنج ، وكانتْ قد فعَلَتْ مثلَ ذلك فى المرة الأولى ، ثم ذهبَتْ ووَقفَتْ ثانيةً ببابَ الدار بعد أنْ أغلَقَتْ بابَ الغُرفة على المخدَّرين .

وما هىَ إلا بُرهَةٌ حتى دخلَ إلى الحارَة جماعةٌ أخرى من جَماعات أحمد الدَّنف .

وما إن رَأتْهمُ زينبُ حتى نادتْهم وجرَى بينَها وبينهم ما جرَى بينَها وبينَ جماعة على كَتف الجمل . وبعد أنْ أدخلتهم إلى غُرفَة أخرَى وسقَتهمُ الشَّرابَ الذى به مذابُ البنج — أغلَقَتْ عليهم البابَ . وعادت إلى موقفها بباب الدار .

وكانتْ بقيةُ جماعة أحمد الدنف قد ذهبُوا إلى المكان الذى اتفَقُوا على الالتقاء فيه . فلم يأت إليهم أصحابُهم ، فذهَبُوا إلى الجهات التى يعرفونَ أنَّهم قصدُوها ليبحثُوا عنْهم ؛ وما زَالُوا يبحثون حتى دخلَت جماعةٌ منهُم إلى الحارة التى تنتظرهُم بها زينبُ ، فكان بينَها وبينَهم ما كانَ مع أصْحابهم من قبل .

وعادتْ زينبُ إلى موْقفها تنتظرُ وفودَ البَقيَّة الباقية من الجماعة التى لم

تَلْبثْ أن جاءتْ وعلى رأسها أحمدُ الدنف ، ومنْ ثمة لم يكُنْ مصيرُ أحمد الدنف مع زينبَ خيرًا من نصيب بقيَّة رجاله ، فما هى إلاَّ هُنيهةٌ حتى كانَ هُوَ وأصحابُه يرقدون غَائبين عن الوَعى بآخر غُرفَة أعدتْها زينبُ لهذا الغَرَض .

ثم ما لَبِثَتْ أن شمرَّتْ عن سَاعدها ، فأقبلَتْ على الرجال الأربعين ، وعلى رأسهم رئيسهم أحمدُ الدنف ، فجردتهم ممَّا مَعَهم من أسلحَة وأموال ، وخلَعتْ عنهُم كلَّ ما استطَاعتْ خلعَه من مَلابسَ ثم جمَعَتْ الملابسَ وما كانتْ قد فرشتْ به القاعات من فراش ، وحمَلتْها جميعًا فوقَ الفَرَس والحمَار ثم أذابتْ ترياقًا ضدَّ البنج فى إناء ، وأخذَتْ قليلاً منه وصَبَّته فى فم على كَتَف الجمل . ووضعَتْ علَى فم الإناء غلافَ الترياق وقد كُتبَ عليه ما يُفيد أنه ضدُّ البنج ، ثم ساقت الحمارَ والفَرَس وأسرَعَتْ بمغَادرة الدار .

وابتدأ على كتف الجمل يُفيقُ . ثم فتَحَ عينيْه يديرهمَا فيما حولَه ، فوجَدَ رجالهُ التسعةَ يرقُدونَ فوقَ الأرض دون فراش ، وهمْ عرايا إلاَّ من صدار وسرْوال ! !

ودُهش على كَتف الجمل واشتدَّ به الدهش ، وقامَ إلى أصحَابه يُوقظهم ويُنبههمْ ، ولكنْ دونَ جَدوى . فخرجَ من القَاعَة يبحثُ عن الفَتَاة التى أضَافتْهم ويرَى مَن فعَل به وبرجاله هَذا الفعل الشَّائن المزرى ، فوجدَ ثلاثَ قاعات بكل منها عددٌ من الرجال يرقدون

هم الآخرون علَى الأرْض ، وقد نزعتْ عنهُم ملابسهم الخارجيَّةُ ، فتفرسَ فيهم فما كان أشدَّ عجَبه حينَ وجدهمُ بقيَّةَ أصْحَابه ، كما يرقدُ بينَهم رئيسه أحمدُ الدنف .

ووقَفَ علَى يفكر فى ذهُول ، ويسأئلُ نفْسَه : منْ فعلَ بهم هَذا الفعل ؟ ومن خدعهم هذه الخدعة ؟ !

وتبلَّجَتْ الحقيقةُ فى ذهنه رُوَيداً رُوَيداً ، وعرفَ أنهُ هُوَ وأصحَابه الأربعَون قد وقعُوا صَيداً لفتاة محتالة نصَّابة ، ضحكت عَليهم ، وسخرَتْ منهمُ . وهزأتْ بهم .

ولم يكنْ لدى علَىٍّ كتف الجمَل وقتٌ للتفكير فى أمر الفتَاة ، أو البَحث عَنْها ، بل كانَ جُلُّ همه أن يعملَ على إفاقة إخوانه وتنبيههمْ مما هُمْ فيه .

ووقعَتْ عيناه على الإناء الذى تركتْهُ زينبُ وعلَيه الوَرقةُ التى تشيرُ إلى ما به ، فجعلَ يصُبُّ منَ الإناء فى فم أصْحَابه حتى أفاقوا ، فأخبرَهم بما كانوا جميعًا علَيه ، ورأوا همْ ما حَلَّ بهم ، فعزَّ علَيْهم أن يُصيبَهم ما أصَابهمُ علَى يد فتاة وهُمْ واحدٌ وأربعون رجُلاً ، وقال أحمدُ الدنفَ :

يا رجالُ ، ما أصابنا الذى أصابنا إلاَّ بسبب دليلة المُحتَالة . لقد تعهدنا بصيد عجُوز هَرمة ، فصادتنا فتاةٌ حدثة .

فقالَ الرجالُ وقد أسخطهم ما حَلَّ بهم . وحَزَ بنفُوسهم ما أصَابهم :

تالله لو وقعتْ هذه الفتاةُ النصابةُ بأيدينا ، لنجعلنها عبرَةً لمن يَعْتَبر !

فقالَ أحمدُ الدنف :

الرأىُ الآن أن ترَوا لأنفسكم مخرَجًا مما أنتم فيه .

كيفَ تُغَادرون هذا المكانَ وأنتم من غير ملابس ؟ ! وكيفَ تسيرونَ فى الطرقات وأنتم بهذه الهيئة . . ؟ ! وكيفَ تكونُ شماتةُ حسن شومان فيكم ، وسخريتُه منكم . . ؟ !

فقالَ الرجال :

ما لنَا إلا أن ننتَظر حلُولَ الليل . ثم نتَسلَّلُ واحداً بعْدَ الآخر .

وعملَ الرجالُ بهذا الرأى ، فما إنْ أسدل الليلُ سُدوله ، وابتدأت الطُرقاتُ تخلو من المارَّة ، حتى غادرَوا الدار متسللين واحداً بعدَ الآخر حيثُ قصَدوا إلى إيوانهم .

وكانَ حسن شومان قد أحَسَّ بغيابهم ، فجاء إلى إيوانهم يلتمس أخبارَهم ، فوجدهمُ يفَدوُن عَلى حالهم هذا المضحك المزْرى ، فلم يتمالكْ نفسَه من أن ضَحك ساخراً منهم وسَألهم :

مَاذا دهَاكم ؟ ومن عَراكم وأخذَ ملابسكم ؟ !

قَالوا :

تعهدنا بعجُوز فعرَّتنا صَبية !

فقالَ حسن شومان وهو يَضْحك :

نعم ما فعلَتْ بكم زَينَب . . . ! !

قالُوا بلهفة :

زينب . . . ! ! مَن زينب . . ؟ ! أتعرفها . . ؟ !

أجابَ :

أعرفها وأعرف أمَّها العَجوز . . . ! !

قالوا :

ولماذا لم تُخْبرنا بذلك ؟ !

قالَ :

وهل أنتمُ شَاوَرتُموني واستمعتم لنُصْحى ؟ !

قالَ أحمدُ الدنف :

وماذا تنْوى أن تَفْعل ؟

قال حَسن شومان :

انفُض يدك من هذه المُهمة لدى الخليفة ، وقلْ لهُ أنا لا أعرف هَذه العجوزَ المحتالةَ ولكن حسن شومان يعرفهُا ، فاعْهد بأمرها إلَيه . وأنا كفيلٌ بالقبض علَيها .

وفى الصَّباح قصد أحمد الدنف وحَسن شومان إلى ديوان الخليفة ، فلمَّا رآهُما الخليفَةُ سأل أحمدَ الدنف :

هل قبضتَ على العَجوز المحتَالة يا مقدمُ أحمد ؟

فأمسكَ أحمدُ بطوق ردائه ونفَضَهُ . فسألهُ الخليفَة :

لماذا تريد أن تتَخلَّى عن المهمة التى عهدتُ إليكَ بها ؟

قالَ أحمدُ الدنف :

لأنى لا أعرف العجوزَ ، ولكن حسن شومان يعرفُها فاعهد إليْه بها .

فسأل الخليفَةُ حسن شومان :

هل تعرفُ العجوزَ المحتالة يا مُقَدم حسن ؟

أجابَ حسن :

نعم أعرفُها هى وابنَتُها ، وأعرف أين تُقيمان .

فسأله الخليفةُ :

وهل عندكَ علمٌ بما أتتْ من حَوادث ؟

فقال :

أنا لا أعتقد أنَّها أتتْ هذه الحوادثَ لرغبتها فى السَّلْب والنَّهْب ، ولكنَّها أتتها لرغبتها فى إظهار نفسها للنَّاس، وإبراز مَهارتها وذكائها وحيلَتها للخليفة .

فسألهُ الخليفَةُ دهشًا :

وماذا تظنُّ غرضُها من وَراء ذلك ؟ !

أجاب حسن :

لأن زَوجَها كان مقدمَ المدينة السَّابق ، وكانتْ لَهُ رواتبُ

وجراياتٍ حُرِمَتْ منْها بموْته فأرادتْ أن تلفتَ الأنظار ليُعهَد إليْها بشيء ، أو يرتبَ لها شيء .

فقالَ الخليفةُ بغَضَب :

ولكنَّها بما فعلَتْ ليسَ لها عندى إلا الموتُ ، اذهب واقْبِضْ علَيْها وائتنى بها .

فقالَ حسن شُومان للخليفة يلتمسُ الشفاعَةَ لدليلة :

يا مولاى ، اقبل شفَاعتى فيها على أن ترُدَّ جميعَ ما أخذتْ من الحاجَات والأموال إلى أصْحَابها .

فقال الخليفةُ :

قبلْنَا شفَاعتَك ، فهاتِها حتَّى ننظرَ فى أمرها .

قال حسن شومان :

أعطنى منديلَ الأمان يا مَولاى .

قالَ الخليفةُ :

هَاكَه . .

وأعْطَى الخليفةُ لحسن منديلَ الأمان ، فأخذه حسن وتوجَّه إلى بيت دليلة ، فقرعَ البَابَ وناداها ، فردَّتْ علْيه ابنتُها زينبُ . فسألهَا :

أينَ أمك ؟

سألت :

ماذا تُريدُ منها ؟

قال :

لقد جئتُ إليها بمنديل الأمان من الخليفة ، فقولى لها تأتى معى لمقابلته ، ومعها كلُّ ما أخذته من النَّاس . وإلا فلا تلومنَّ إلاَّ نفسها .

وسمعت دليلةُ ما جرى من حوار بينَ ابنتها زينبَ وحسن شومان فخرجتْ إليه وقالت له :

أعطنى منديل الأمان .

فأعطاها حسنٌ المنديل ، فأخذته ولفته حول رقبتها ، ثم أتتْ بحمار الحمَّار وفرس البدوى ، فحملتْ عليهما ما أخذته من خاتون زوجة الأمير حسن ، وما أخذته من التاجر حسن ، وما نهبتهُ من دكان الصبَّاغ ، وما أخذتهُ من حلى ابن شاه بندر التجَّار وملابسه ، وما احتالتْ على أخذه من اليهودى والحلاق . ثم وضعتْ عباءةَ البدوى وقالتْ لحسن شُومان :

هيَّا بنا إلى الخليفة .

فقال لها :

وأينَ ملابسُ صاحبي أحمد الدنف وملابسُ رجاله ؟ !

فقالت دليلة :

أقسم لكَ بالله إنى ما أخذتُ منهم شيئًا .

فقالَ حسن :

صدقْتِ ولكنَّ ابنتك هى التى أخذت

قالت :

إذن فأنا ليسَ لى بذلك شأنٌ .

وعَلى ذلك سار حسن شُومان ودليلة يقُودان الفَرس والحمَار حتى وَصَلا إلى مقَر الخليفة .

ودخلَ حسن شومان يقودُ دليلةَ إلى الخليفة فى مجلسه وقالَ له :

هَذه هى المرأة التى كلَّفتنى القبضَ علَيها يا مولاى ، وأعطيتْنى لهَا الأمان ، وقبلتَ فيها شفَاعتى .

قالَ الخليفةُ :

نعم فقد سبقنا فقَبلنا شفَاعتك فيها ، رغم خُطورَة فعلها ، وعظم جُرمها ، اللذين كان يجبُ أن يحُلَّ عليها بسببهما القتْل .

وقال الخليفة لدليلة :

ما اسمُك يا امرأة ؟

قالت :

اسمى دليلة .

قالَ :

بل ما أنت إلا خَداعةٌ مُحتَالة .

ثم أردف :

لماذا نهبت حاجات النّاس ، وسلبت أموالهم ؟

قالتْ :

أنا ما نهبتُ بقصد النّهب ، وما سلبتُ طمعًا فى سلْب أموال النّاس .

قالَ الخليفةُ :

لِمَ ، إذن ، أتيت ما أتيت ، وفعلت ما فعلت ؟

قالت :

لكى أثبتَ أنى لا أقلُّ مهارةً وحيلةً عن أحمد الدنف وحسن شومان اللذين عيّنهما الخليفةُ — حفَظه اللهُ — فى عمل زوجى ونسيبى ونسيى ابنتى ، أما حوائجُ النّاس فقد جئتُ بها معى ليردها الخليفةُ لأصْحابها .

فأمرَ الخليفةُ باستدعاء أصحاب الحاجات التى أخذتها منهم دليلةُ ، فأتوا جميعًا ، فأمرَ الخليفةُ بتسليمهم حاجاتهم وأموالهم فتسلّموها .

أما الحمّار فقد قال للخليفة متظلمًا :

إنّ دليلة المحتالة لم تكتف بأخذ حمارى يامولاى ، بل عملت على خلْع ضرسين من أضراسى وكى صُدغىّ ؛ فأنا أطالبُها بتعويضٍ عما أصابنى من ضرَر .

فقالَ الخليفةُ :

لكَ عندنا فى مُقابل ذلك مائةُ دينار .

وقالَ الصَّبَّاغ :

وأنا يا مولاى لمْ تقتصر خَسارتى على ما أخذتْ من دكّانى ، بل إنها عَملتْ على إتلاف ما بها من مبان وأدوات .

فقال الخليفةُ لخازنه :

اصرف للصبّاغ أيضًا مائة دينار لتعمير دكانه .

فصرَفَ الخازن لكل من الحمّار والصَّبّاغ مائةَ دينار ، فأخذاها وهُما يلهجَان بالشكر للخَليفَة .

وانصرَف الجميعُ كلٌّ منهم بحاجَته ، وسحَبَ الحمَّار حمارَه ، وركبَ البدوىُّ فرسَه ، وهو يقول لهَا :

هيَّا بنَا إلى باديتنَا الجميلة ، حرامٌ علىَّ دخولُ بغداد ، وحرامٌ علىَّ أكلُ الزلابية بالعَسل .

أما الخليفةُ فقد سألَ دليلة :

ماذا تُريدين يا دليلة ؟

قالت دليلةُ :

لقد كانَ أبى على خان الحمام الزاجل ، وحَلَّ زوجى مقدمُ بغداد السَّابق محلَّه ، فأنَا أريدُ نصيبًا مما كانَ لأبى وزوْجى ، وابنتى تريدُ شيئًا مما كانَ لأبيها .

فقال الخليفةُ :

لك ما تريدين .

فقالت :

وأتمنى عليك أن تجعلنى حارسةً لخان الحمام .

قال :

لك ذلك .

فدعتْ دليلةُ للخليفة بالخير ، وانصرفتْ من ديوان الخليفة وهى من مستخدمى الديوان وموظفيه ، بعد أن دخلتْ إليه متهمةً تستأهلُ القصاص والعقاب .

وتوجهتْ دليلةُ إلى الخان يصحبُها تابعٌ من قبل الخليفة حيث قام بتسليمها الخان والحمام ، كما أوصى الأربعينَ عبداً الذين يقومونَ بخدمة الحمام ، والطاهى الذى يتولى طهوَ طعامهم ، بطاعة دليلةَ والعمل على راحتها .

وكانَ بالخان مكانٌ مريحٌ مُعَدٌّ لسكنى من يتولى أمر الخان فذهبتْ دليلةُ إلى ابنتها زينب ، وأخبرتها بما تمَّ ، ودعتْها إلى الانتقال للسكنى بالخان ؛ فجمعتْ زينبُ حاجاتهما ، وانتقلتْ مع أمها إلى الخان ، فسرَّها ما وجدته به من غُرف فسيحة طلقة الهواء ، وما وجدتْ من فراغ وفضاء واتساعٍ تجاهَ برُوج الحمام .

فقالتَ لأمها فرحة :

حقا يا أمى ، لقد جئتِ لنا بشىء عظيم .

فقالت دليلةُ :

ولكنْ بَقىَ علينا أحمد الدنف ، فإنهُ لن يسكتَ على تَعْريته هُوَ ورجاله وأخذك لملابسهم .

فقالَتْ زينب :

غداً تَرين يا أمىّ من منّا سينتصرُ على الآخرَ .

ثم قامت فرتبتْ حَاجاتهما بالسّكن الجديد ، وعلّقت الإحْدى والأربعين بذلةً الخَاصّة بأحمد الدنف ورجاله بجدران حجرة فسيحة ، فَغطّت جَوانبها بها .

واستتبَّ الأمرُ لدليلة وابنتها ، ونالت بذلك ما كانت تتمنى ، وصَارَ لهَا موكبٌ كلَّ يوم تخرجُ فيه راكبةً فوق ظهر بغْل ويسيرُ بجوارها بعضُ عَبيدها للتَّوجه لديوان الخليفة ثم للعودة منه .

٧

بَيْنما كانتْ هذه الأحداثُ تجرى ببغداد ، كانَ بمصرَ شاطرٌ اسمهُ على الزئبق المصرى ، وكان علىٌّ الزئبق من تَلاميذ أحمد الدّنف ، ومن أنْداده فى المخادعة والمكْر والحيلة ، فلما هاجر أحمدُ الدنف إلى بغدادَ ، اتخذَ الشاطرُ على لنَفْسه أتباعًا يتّبعونه ويأتمرونَ بأمره .

واشتَهر الشّاطرُ على بما كانَ يعملُ من مكايدَ وألاعيبَ ومقالبَ ، كما اشتَهر ببراعته ومهارته وسعَة حيلَته فى الإفْلات من أيدى الشرطة

ورجال الأمن ، وتدويخه للحكّام الذين يرغبُون فى القبْض عليْه ، فلُقبَ لذلك بالزئبق لسرعة هُروبه وزَوَغانه ، وإفلاته من أيدى كل منْ يريدُ الإمساكَ به ، ومن ثمّةَ فقدْ صَارَ اسمُه الذى يُعرفُ به هُوَ عَلى الزئبق .

وذاتَ يوم شعَر على الزئبق بضيق فى صدره وملالة لا عهدَ لَهُ بهما ، فخرجَ يتمشّى بطُرقُات المدينة ويتجوّل بأرجائها ، للتّنْفيس عن كربه ، والترويح عن نَفْسه .

وساقَتْه قدماهُ إلى إحْدى الطرقات ، فالتقى فيها برجُل سقّاء يحملُ قربةَ ماء على ظَهره ، وبيده كوبٌ يَسْقى النّاس فيه . وهو يسيرُ مُناديًا على مائه ، مُنْشداً فى ندائه بصوت مُنغّم جميل .

وشعر على الزئبق بالعَطش ، فتقدم من السّقّاء ، وطلبَ منهُ أن يسقيه . فملأ السّقّاءُ الكوبَ الذى بيده من الماء الذى يحمله فى قربَته ، وناولَه لعَلى ، فأخذَ على منهُ الكوبَ وخَضّه ثم سكَبَهُ على الأرض ، ثم ناولَ الكوبَ للسّقّاء وقال له :

اسقنى .

فملأ السّقّاءُ لعلى الكوبَ مرةً ثانيةً ، وأعطاهُ له ، فأخذه وخَضّهُ كذلك ، ثم سكَبهُ على الأرض ، فدُهش السقاءُ من ذلك وقال له :

أما تشربُ يا فتى ؟ !

قال على :

اسقنى .

فملأ السَّقَّاءُ الكوبَ للمرَّة الثالثة ، ففعلَ به على ما فَعل فى المرتين السَّابقتين ، فقال له السَّقَّاء غاضبًا :

يا هذا ؛ إن لم تكن تريدُ الشربَ فانصرف عنى .

قال على :

بل اسْقنى .

فملأ السقَّاءُ الكوبَ وأعطاهُ لعلى ، فأخذه وشربه ، ثم أخرجَ من جيب ردائه دينارًا ذهبيًّا وأعطاهُ للسَّقَّاء ، فأخذه السَّقَّاء وقال :

قليلٌ ما جدتَ به ، وإنى لأطْمعُ منكَ بالمال الجزيل .

فدهش على مما سمع من قول السقَّاء وقال له :

ماذا تَقُولُ يا رجُل ؟ ! أ أعطيكَ دينارًا فى شربة ماء ، وتقولُ لى مثلَ هذا القَوْل ؟ !

قال السَّقَّاء :

ولكنكَ لم تشربْ إلا بعدَ أن سكبتَ على الأرْض ثلاثة أكواب .

فقالَ على وقد أمْسكَ بكتف السَّقَّاء يهزُّهُ فى عُنف :

أتريدُ أن تسخرَ ممَّا فعلتُ يا رجُلُ ؟ ! كم تُساوى الثلاثةُ الأكواب من الماء التى سكبْتُها على الأرض ؟ ! إنَّها لا تُساوى ثلاثة دراهم .

فقالَ السَّقَّاء :

ولكنْ هُنَاك رجُلاً فعلَ فعلكَ وكانَ أكرمَ منك .

فاشتَدَّ غضبُ على ، واحتَدَّ على الرَّجل بقوله :

أ أعطيكَ يا رجلُ دينارًا ذهبيًّا ، وتقولُ لى : إنَّ هُناك منْ هوَ أكرمُ منى ؟ ! قلْ من هُو ؟ ! وأينَ يكون ؟ !

فقال السَّقَّاء :

لذلكَ قصَّةٌ ، وهىَ أنَّ أبى كانَ سَقَّاءً ماتَ وتركَ مهنَتَه وما ادخرَه طولَ حياته من مال ، فأخذتُ أنا جميعَ ما خلَّفَ لى ، وخرجتُ إلى الحجاز للحَج إلى بيت الله الحرَام ، ولكنى صرتُ أصرفُ وأبذِّرُ حتَّى أنفقتُ جميعَ مَالى ، ولم يبْقَ مَعى ما يمكنُنى من العَودة إلى بلادى ، وكنتُ بصحبة جماعَة من أهل بَغْداد ، فصحبْتهم فى عَودتهم إليها .

فلما وصلتُ إلى بغداد سألتُ عن شيخ السَّقَّائين هناكَ فدلونى عليه ، فقصدتُ إليه ، وأخبرته بخبرى ، وبيَّنتُ لهُ حالتى ؛ فأخلى لى مكانًا أنامُ فيه عنده ، وأعطانى قربةً وكوبًا لأزاولَ بهما عملى .

وهكذا صرتُ سقَّاءً ببغدادَ ، أملأ القربةَ كلَّ يوم ، وأخرجُ بها أطوفُ بطرقات المدينة لسَقى النَّاس ، فيعطُوننى جزاءَ ذلكَ ما تجودُ به نفوسهم .

وبينما أنا أسيرُ بالطريق ذاتَ يوم كعادتى أبصرتُ بركب على رأسه

رجلٌ يرتدى بُرنُساً من تحته درعٌ من الفُولاذ ، ومن فوق رأسه طاقيةٌ من اللبَّاد ، ومن ورائه يسيرُ جمعٌ من الرجال في مثل لباسه ، كلُّ رجلين معاً . فسألتُ :

مَن هذا الرجُل ؟ ومن هُم هؤلاء الرجال الذين يسيرونَ خلفَه ؟ !

فقيلَ لى :

هذا أحمدُ الدنف ، عيَّنَهُ الخليفة مُقدماً لميمنة بغدادَ ، وهؤلاء رجالُه .

فأردتُ أن أتقدمَ من أحمد الدنف لأعرضَ عليه مائى ، ولكنه سَبقَ هو فرآنى ، فأشارَ إلىَّ وقال :

تعالَ إلىَّ يا سَقَّاءُ ، واسقنى شربة ماء .

فملأتُ لهُ الكوبَ ، فأخذه وخضَّه ثم سكبه على الأرض ، وقالَ : املأه . فملأته . فخضَّهُ ثانيةً وسكبَه على الأرض ، وقالَ :

اسقنى .

فتعجبْتُ من أمره ، وملأتُ لهُ الكوبَ للمرَّة الثالثة، فخضَّهُ وسكبَه كما فعَل فى المرَّتين السَّابقتين ، وكما فعلتَ أنتَ الآنَ ، فتملكنى لذلك الغضبُ ، وهممتُ أن أنصرفَ عنْه ، ولكنَّه قال :

اسقنى .

فملأتُ له الكوبَ وفى عزْمى أن انصرفَ عنْه إذا لم يشربْ ، ولكنَّه شَرب ؛ ثم سألنى :

يبدُو أنكَ غريبٌ عن بغدادَ ، فمن أى البلاد أنتَ يا رجُل ؟

فقلتُ له :

من مصرَ .

فقال :

حيَّا اللهُ مصرَ وأهلَها .

ثم سألنى :

ولمَ أتيتَ إلى هُنا ؟

فأخبرتُه بقصتى ، فأعطَانى خمسةَ دنانيرَ ذهبيةً ، وقالَ لأتباعه :

جُودوا على هَذا الرجل بما تجودُ به نفوسكم .

فأعطانى كلُ واحد من رجاله دينارًا .

وصرتُ بعدَ ذلكَ أترددُ على أحمد الدنف ورجاله فى قاعتهم ، فيتحفُونَنى بمنحهم وعَطَاياهُمْ .

وسَاقَ اللهُ لى الرزقَ من مهنتى ، فاجتمعَ لدىَّ مبلغٌ لا بأسَ به من المال ، فصَحَّ عزمى عَلى العودة إلى مصرَ ، فذهبتُ إلى أحمد الدنف فى قَاعتَه ، وأخبرتهُ بما اعتزَمْتُه ، فدمعَتْ عيناهُ ، وأنشَدَ بيتَين من الشعر فيهما حنينٌ إلى مصرَ وأهلها ، وفيهما سلامٌ وودَاع للمسافرين إليها ، ثم قالَ :

أريدُ أن أعطيك كتابًا توصلُه إلى صَاحب لى فى مصرَ ، فهل أنتَ فاعلٌ ؟

فقلتُ له :

نعمْ ، أعطني إيَّاه ، وسم لى صاحبَه ، فأسلمهُ إليْه .

فكتَبَ كتابًا وأعطاهُ لى وقال :

إذا وصلتَ إلى مصرَ فاسألْ عن عَلى الزئبَق المصرى ، وأعطه لَه .

فلمَّا جئتُ إلى مصرَ سألتُ عن عَلى الزئبق فعرَفَ اسمَه الجميعُ ؛ ولكنْ لم يدلَّنى أحدٌ على مكَانه .

فلمَّا فعلتَ أنتَ الآن ما فعَلَ أحمدُ الدَّنف ببغدادَ تعَجَّبتُ ، وتذكَّرتُه ، وطمعتُ أن تكونَ عطيتُكَ لى كعَطيتَّه . فلماذا فعلتَ كما فَعل ؟ ! ثم جُدتَ لى بما جُدتَ ؟ !

فقالَ عَلى :

فعلتُ كما فعلَ لأنه أستاذى وأنا تلميذُه ، وجدتُ بما جدتُ لأنَّ هذه عادتنا مع الفُقراء والمساكين .

فقالَ السَّقَّاءُ بفرح :

أنتَ من تلاميذ أحمدَ الدنف وأتباعه ؟ إذن ، دُلَّنى عَلى علىِّ الزئبَق المصرى لو كُنتَ تعرفُه حتى أوصِّلَ إليْه كتابَ مُعَلمه .

فقالَ على الزئبَق وهو يَضْحك :

طِبْ نَفْسًا ، وقرَّ عينًا ؛ فأنا على الزئبق المصرى .

فقالَ السَّقَّاء :

حَقًّا . . ! لقد خَمَّنتُ ذلك وحدَّثتْنى به نَفْسى .

ثم أخرجَ من بين طيّات ثيابه كتابًا مختومًا ، وأعطاهُ لعلىّ ، فأخذه هذا وفضّهُ وقرأهُ ، فوجدهُ بخط أستاذه أحمد الدنف ، وفيه يعرفُه ما وصلَ إليْه من منزلة طيبة لدى الخليفة ، ويدعُوه إلى اللحاق به ببغدادَ ، عسى اللهُ أن يهئ لهُ مركزًا طيبًا فيها .

فقبّلَ على الكتابَ ، ورفعهُ إلى رأسه احترامًا لهُ ولكاتبه . ثم أخرجَ من كيسه بضْعة دنانيرَ جادَ بها على السقّاء ، ثم شكرَهُ ، وودّعه وانْصرَف .

وسارَ على إلى قاعته التى يجتمعُ فيها بأعوانه فوجدهُم مجتمعين فى انْتظاره .

فقالَ لهم :

لقد عزمتُ على السّفَر إلى بغداد الآن .

فقالُوا له :

وماذا نفْعلُ بدونك ؟ ! وكيفَ تتركُنَا ونحنُ لا نملكُ شيئًا نقتَاتُ به ، ونعيشُ عليْه ، فليْس فى مخزننا زاد ، ولا فى أكياسنا مَال ؟ !

فقالَ على :

سأرسلُ إليكمْ ما يكْفيكُم إنْ شاءَ اللهُ .

وعلى هذا شرَعَ علىٌّ الزئبق فى إعداد نفْسه للسّفَر ، فلبسَ تحتَ ملابسه درعًا من الزّرَد ، وتوَشّح بسيفه ، وأخذَ كذلكَ

شَبَكَةً من الزَّرَد وضَعَها فى جرابه الذى وضعَ فيه زاده ؛ ثمَّ ودع أصحابه وخرجَ يَنشد الركائبَ المسافرةَ إلى الشَّام والعراق .

والتَقَى علَى بركْب من التجَّار والمسافرين . وكانَ بعضُهم من أهْل مصرَ المسافرين إلى بغداد للتجارة ، وبَعْضهُم من أهْل الشَّام والعراق الذين كانُوا بمصرَ لهذا الغَرَض ، ثم هُمْ بسبيل العوْدة إلى بلادهم .

وعَرضَ علَى علَيهم الصحْبَةَ فقَبلوا . وساروا وسَارَ علىٌّ مَعهُم ، وكانَ مِنْ بينهم شيخٌ كبيرٌ مَعَه بضَائعُ كثيرةٌ ، وأحمالٌ متعددة ، فقالَ لَهُ علي :

لِمَ لَمْ تَصْحبْ معكَ من يُساعدكَ يا سيدى . فهذه أحمالٌ كثيرةٌ ، وأنتَ وحدك لاتستطيعُ الإشرافَ علَيها فى حلِّك وترحَالك ؟

فقالَ التاجرُ :

لقد اكْتَريتُ غلامين لهذا الغَرَض ، ولكنَّهما غدرا بى ، وفرَّا منى ، رغمَ ما حَبَوْتهما به من كرَم وإحسان ، وهأنذا كما ترانى فى شدة الضيق والتَّعب .

فقادَ له :

أنا أساعدكَ ، فلا تَبْتئسْ ، ولا تَحملْ هَمًّا .

ولازمَ علِىٌّ التاجرَ الشيخَ أثناءَ السَّفر ، حتَّى إذا ما غادرُوا حلَبَ من أرْض الشَّام مرُّوا بمشَارف غَابة كثيفة ملْتَفَّة الأشجار ؛

وحينئذ سَمعُوا زئيرًا عاليًا ،وجَفَتْ لهُ نفوسُ التجار ،وكادتْ تنخلعُ منَ الرُّعب والهلَع قلُوبهم . ذلك أنهم أدركوُا أنَّ صَاحب هذا الزَّئير أسدٌ كاسر ،يَفْرِضُ ضريبةً على كل رَكب أحسَّ به يَجُوز بغابته ، ولا يرجعُ عن أى قافلَة يشعرُ أنها تمرُّ به حتَّى يحصُلَ منها على طلبته .

لذا كانَ كلُّ ركْب ، وكُلُّ قافلة تشعرُ أنَّ الأسد أحسَّ بمروُرها تعملُ قُرعةً بينَ أفرادها ، ومَنْ طلَعَتْ عليه القُرعةُ أخرجَتْه من بيَنها ،وتركَتْه للأسد فريسةً سَهلةً يفترسُها ، ويتَلَهَّى بها عنْ بَقيَّة القَافلة .

وبذلكَ عملَ الرَّكبُ الذى يَصْحَبُه عَلى الزئبق ، وطَلعتْ القرعةُ على التَّاجر الشَّيخ الذى عرضَ عَلىٌّ عَلَيْه مُساعدته . واستَسْلَمَ التَّاجرَ الشَّيخَ للأمر ، وجَعَلَ يسلم لإخوانه التجَّار أحماله ويوصيهم بإيصَالها لأولاده ، وعَيناَهُ تطْفر منهما دموعُ الألم والحسرة .

وأحسَّ عَلى الزئبق بما يجرى حولَه ، ورأى صَاحبَه الشيخَ وهو يُودعُ أصحابه ، وَيبكي ويَبْكُون فسألهم :

ما الخبرُ أيها الإخوان ؟ !

فأخبرُوه الخبرَ ، فقالَ :

أتخافُون قطَّ الغابة ،، وتُخرجُون من بَينكم رَجُلاً فاضلاً كهذا الرَّجل تُلقُونهُ إليْه ؟ !

قالَ التجار :

هذا ما جرَتْ عَلَيْه القوافلُ التى تمرُّ ها هُنا من قَبْل ، وما أخرجْنا صَاحبنا هذا إلاّ لأنّ القُرعَة التى عملنَاها فيما بيننَا قد خرَجتْ عليْه من دوننا .

قال :

سأكفيكُم وأكفى القوافلَ من بَعْدكم شرّ هَذا الأسد .

قالُوا :

وماذا أنتَ فَاعل ؟ !.

قال :

سأقتلُ الأسدَ الآنَ أمامَ أعُينكم .

فقالَ التاجرُ الشيخُ :

والله لو قتلْته يا وَلَدى ليكُونَنّ لكَ عنْدى ألفُ دينار .

وتحمّسَ التجّارُ الآخرُون فقالوا :

ولكَ كذلكَ فى أموالنَا ما يكفيكَ .

عنْدئذ خلعَ عَلىَ الزئبق ملابسَه الخارجيّة ، فظهرَ من تحتها درعُ الزّرد الذى يلْبسه ، وأمسكَ السيفَ بيمينه ، وشَبكةَ الزّرد بيَساره ، ثم تَقَدمَ نحوَ الغَابة التى كانتْ تضْطربُ بزئير الأسد الجائع . ويتردد فى جنَباتها صَدى صَوْته المرعب المخيف .

وبرزَ الأسدُ من بين الأشجار ، ووقفَ ينتظرُ ويرقب الفَريسةَ التى تتَقَدّمُ نحوَه .

وتقدم عَلى قليلاً ثم وقفَ يستعدُّ لهجُوُم الأسد ، وعَلى مبعَدة كانَ رجالُ القافلة واقفين يتطَلعُون إليه بعيُون محمْلقَة ، وأفواه فاغرة ، وقلوب واجفة . وألسنة منعقدة .

وابتدأ الأسدُ يتقدَّمُ نحوَ الصَّيد . . ! وابتدأ المصيدُ يستَعدُّ لصَيد صَائده .

وهجمَ الأسدُ عَلى عَلى ، وضَغَطَ عَلىٌّ عَلَى لولَب بشبكة الزَّرَد الملتفَّة بعضُها فوقَ بعْض بيده ، فانفردتْ فجأةً ، فَطَوَّح بها فى وَجه الأسد ، فعاقتْه عن الهُجُوم عَلَيْه ، وصَدته عن أن ينشبَ أنْيابه وأظفَارَهُ فيه .

وارتفَعتْ يمينُ عَلى بالسَّيف ثم انقَضَّتْ عَلى مقَاتل الأسد تَطعنُه وتُثْخنُه جراحًا ، قبلَ أن يَسْتطيعَ سَبعُ الغَابة من مأزقه فكاكًا أو خَلاصًا .

وتعالى صياحُ التجار بالهتاف لعَلى ، وارتفعتْ أصواتُهم بالدعاء لهُ ، والثَّناء عليْه . ثم أسرَعوا نحوَه يُصَافحونه ويشْكرونه ، وفى مقدمتهم التَّاجر الشيخُ الذى أخذ يعانقهُ ويُقَبِّلُه وعيْناهُ مغرَورقتان بالدمُوع شكرًا وعرفانًا بما قدمَ إليْه عَلى من جَميل .

واستَمَّر الركبُ بعدَ ذلك فى سيره بعدَ أن نقدَ الشيخُ عليًّا ألف دينار كما وَعَدهُ . وكذلك أعطاهُ بقيَّة التجار ما وَعدوه .

وعَلَى مرحَلَة من بَغدادَ اعترضَ طريقُ الركب بدوى مُلثَّم

يمتطي فرساً ومن ورائه جماعة من أعوانه يشهرون السيوف . و يرفعون الرماح.

وصاح البدوى الفارس على ركب التجار بصوت جهوري يقول :

سلموا ما بأيديكم من مال ، وما بأحمالكم من متاع ومتاجر ، قبل أن تذهب نفوسكم ، وتطاح رءوسكم .

وسرى بين ركب التجار صوت واحد يقول :

ضعنا ، وضاعت أموالنا . . . !

وتساءل على قائلاً :

من هذا البدوى ؟! ومن هؤلاء الرجال ؟!

قال التاجر :

هذا رئيس عصابة من قطاع الطرق ، وهؤلاء أتباعه وأعوانه من الأشرار.

قال على :

سأكفيكم شره وشر أعوانه .

قال التجار فى فرح وسرور :

ولك علينا مثل ما أعطيناك فى المرة السابقة .

فأخرج على من جرابه حزاماً تدلت منه جلاجل وقواقع وأجراس كثيرة فتمنطق به ، ثم تقدم نحو البدوى قاطع الطريق ، فصاح عليه :

اخرج إلى فبارزنى ونازلنى .

فتقدمَ قاطعُ الطريق من عَلى ، وتقدم علىٌّ كذلكَ منه . فلمّا صَارَا بإزاء بعضهما بعضًا : هذا راجل وهذا على فرسه ، وقد شَهَرَ كُلٌّ منهُما سيفَه ليضربَ به غريمه . أتى على بحركات عنيفة من جسده جَلجَلَتْ معَها جلاجل الحزام الذى يتمنْطقُ به وأجراسُه بصَوْت مُدَوٍّ عَالٍ جعلَ فرس البَدوى تجْفل مرتعبة . فيَختَلُ معها توازُنُ راكبها من فوقها ، وتنحرفُ يده بالسَّيْف عن موضع الدفاع عَنْ نَفسه ، وبذلك أتيحتْ فرصَةٌ طيبةٌ لعلى ليطعَن فيها غريمه ، فسدد إليه ضربةً أطاحَتْ به من فوق ظهر الفرسَ . ثم أتبْعَها ضربةً أخرى طاحَ معها رأسُه .

وأسرعَ علىٌّ فاعتلى ظهرَ الفَرس قبلَ أن يهجُم عليْه أعوانُ البدوى انتقامًا لقائدهم ، ثم أسرعَ إليهم يضربُ بسيْفه يمينًا وشمالاً ، فشتَّتَ شملهم ، وجعلهم يفرون من وَجهه وَجلين مذعُورين .

وعاد على إلى إخوانه فائزًا منتصرًا ، وقد غَرسَ بطرْف سيفه رأسَ البَدوى يلوحُ لهمُ به فى الهواء .

وهَلَّل الرجالُ وكبَّروا ، والتفوا حولَ عَلى يعانقُونه ويقَبلونه بفرح وسرُور ، ثم أقبلُوا عَليْه يُكافئونه من أموالهم بسخاء جزاءَ ما قدمَ لهمُ ، فقد حَفظ عليْهم أرواحهم وأموالهم .

وأخيرًا وصلَ أصحابُ الركب إلى بغداد سالمين غانمين ، فسألَ علىٌّ التجارَ بقوله :

مَن منكم يا أصحابى يعتزم أن يعود إلى مصرَ وَشيكًا ؟

فأجابَ بعضُهم :

إنّا سنَعُود إلى مصرَ بعدَ ما نُسلم ما معَنا من البَضائع إلى أصْحابها .

فتقدمَ على من كبير فيهم وأعطاهُ ما كان قد كوفئْ به عَلى شجاعته من مال . وقالَ لَه :

إذا ما وصَلْتَ إلى مصرَ يا سيدى . فاسأل عن قاعة على الزئبق المصرىّ ، وأعط هذا المالَ لنقيب القاعَة . وقلْ لَه : هذا المالُ أرسلَهُ إليكمْ رئيسُكم فقسمُوه فما بينكم بالتّساوى .

فأخذَ التاجرُ المالَ من عَلى وقالَ :

حبًّا وكرامةً . سأفْعَلُ ما تُريدُ ، فكُنْ مطمئنَّ القَلْب . مستريحَ البَال .

وافترقَ التجّار كل فى شأن أحمَاله وبضَائعه . ودخل عَلى الزئبَق بغدادَ يتمشّى فى شوارعهَا يلتَمسُ من يدلهُ على مقام أحمد الدنف وأتباعه .

٨

لم يكُنْ على الزئبَق قد جاءَ بغدادَ قبلَ ذلك ، لذا سارَ فى شَوارعها يتعرفُ عَلى مسَالكها ، ويتفرجُ على أسْواقها ودكاكينها .

وفى أثناء تجواله هذا سألَ بعضَ النَّاس عن المقدم أحمد الدَّنف ، وأينَ يُقيمُ ؟! فلمْ يدلَّهُ عليْه أحدٌ . فبينما هُو يسيرُ بإحْدى الطرقات التقى بجماعَة من الصبْيَة يلعبُون ويمرحُونَ ، فقال فى نفسه :

لا تأخذْ أخبارَهمْ ، إلاَّ من صغَارهم .

فعرَّجَ على دُكَّان يبيعُ بعضَ أنواع الحلوى ، فاشترَى شيئًا منها ، ثم نادى الأطفالَ . فلما أتوْه فرَّق عليْهم ما اشترى ، ثم مالَ على أحدهمْ وقد توسَّمَ فيه النَّباهةَ ، فسأله :

ما اسمُكَ يا بُنى ؟

قال الصَّبيُّ :

اسمى أحمدُ اللَّقيطُ .

فقالَ على :

هل سمعتَ عن شخص هنا اسمُه المقدمُ أحمدُ الدنف ؟

قال الصَّبيُّ :

نعمْ ، فهو مقدم الميمنة .

سألَ علَى :

وهل تعرفُ أينَ يُقيم ؟

قال الصَّبى :

نعمْ ، فهو يُقيمُ معَ رجاله فى إيوان به إحدى وأربعون قاعةً خصَّصَهُ لهُ الخليفةُ .

فقال علي :

هلْ تستطيعُ أن تصْحبني لتدلّني عليْه .

ففكّر الصبيُّ لحظةً ثم قال :

نعم ، وإنما أنا أسير أمامَك وأنتَ تسيرُ خلْفي . فإذا ما مررتُ أنا أمامَ باب أحمد الدّنف فسآخذُ حصاةً برجلي وألقيها على البَاب ، فتعرفُ أنتَ أنه بابه .

فقال علي :

أنتَ وما تُريد .

وسارَ الصبيُّ بطرُقات بغدادَ يسير تارةً ، ويجرى تارةً ، ويلعبُ تارةً ، وعلىٌّ الزئبق من خلْفه حتّى مرّ بباب أحمدَ الدنف ، فأخذَ حصاةً من الطّريق بقدمه ، وألقاهَا نحو الباب وكأنهُ يلعبُ ، ثم سارَ في طريقه .

فأعجبَ علي الزئبق بما فعَل الصّبيُّ ، وقال لنفسه :

والله لئن صَدقَ هذا الصّبي فيما فعل وأشار . وتهيأ لي مقامٌ بهذه المدينة — لسوفَ أتّخذُه صبيًّا من صبْياني !

ثم اتجَه إلى الباب الذى أشار إليْه أحمدُ اللّقيط بالحصاة ، فقَرعَه قرعَةً خاصّةً كانَ يعرفُها عنْهُ أصحابه وأعوانُه .

ومن الداخل صاحَ أحمدُ الدّنف يقولُ لنقيب إيوانه :

يا نقيبَ الإيوان ، افتحَ البابَ لعلي الزئبق المصرى !

وفتحَ الباب ، وتقابَل التلميذُ وأستاذه بالعناق ، ورحّب أتباعُ

أحمد الدنف بعَلى ، وسارعُوا إلى الحفَاوَة به والتَّرحيب بمقدمه .

وجلس عَلى وأحمد الدنف وأتباعُه يسمرون ، يقُصُّ هُو أخبارَ مصر ، ويقُصُّون هُم أخبارَ بغدادَ . حتى انصرَم باقى النَّهار . وانتَصفَ الليل . ثم قامَ كلٌّ إلى فراشه فنَام .

وفى الصَّبَاح أعطى أحمدُ الدنف لعلى حُلةً مثلَ حلتِه وقال له :

هذه الحُلةُ حجزتُها باسمك حينما صرفَ لى الخليفةُ ولأتباعى ما خُصص لنَا من ملابسَ ، فالبسها وامكثْ هُنا بالإيوان حتَّى أتوَجَّهَ أنا إلى ديوان الخليفة ، ويقومَ الرجَالُ بما عَليهم من أعمال ، ثم نعُودَ إليكَ .

فأخذَ على الحُلة ولبسها ، وشكرَ أحمد الدنف عَلى ذلك ، ثم قال :

ولكنى كنتُ أودّ أن أخرجَ إلى المدينة أتريَّضُ فى شوارعها ، وأتعرفُ مسالكها .

فقالَ أحمدُ الدنف :

ولكنَّك غريبٌ يا وَلدى ، وأخافُ عليكَ من شُطَّار بغداد ، فهُمْ يَنْبتُون بها كما ينبُتُ البقْلُ فى الأرض .

فقالَ على بدهْشة .

ولكنْ أعَلَىَّ تخافُ ياسيدى؟! وماذا سيكونُ حَالى بهذه المدينة إذن ، إذا لم أتعرَّفْ درُوبها وأسواقَها ، وأختبرْ طبائعَ أهْلها وخصَالهم ؟!

فقالَ أحمدُ الدنف :

أجِّلْ ذلكَ حتى أعمل على تقْريبك من الخَليفَة ليرتب لك راتبًا ويُخَصص لكَ جرَايةً .

فقالَ عَلى :

أعانك اللهُ ووفقكَ فيما تَسْعى إليه .

ومَضى عَلى عَليٍّ الزئبق بإيوان أحمدَ الدنف ثلاثةُ أيام ، وفى اليوم الرَّابع حدثَ عَلى نفسَه بقَوْله :

أجئتُ أنا إلى بغداد كى أسْجنَ نفسى بهذا الإيوان ؟! والله لأقومَن اليومَ بجوْلة أفرجُ فيها عَنْ نَفْسى ، وأشرَحُ بها صَدرى !

ثمَّ ما لَبثَ علىٌّ أن نفَّذَ فكرته هذه ، فغادر إيوانَ أحمدالدنف ، وسار يجوُب شَوارعَ المدينة ويتجَّولُ بأرجائها هنا وهُناك ، وبينما هُو كذلك شاهد امرأةً فوقَ رأسها خُوذة وعلى كتفها عباءة تعتلى ظهرَ بَغلة ، وتسيرُ بها فى الطريق ؛ فعجبَ من أمرها ، وسألَ رجُلاً كانَ يمرُّ بجانبه :

من تكونُ هذه المرأةُ ؟ !

فأجابَ الرَّجل :

هى دليلة ، بوابةُ خَان حمام الزَّاجِلِ الخاص بالخليفة .

وكانتْ دليلةُ وقتئذ عائدةً من ديوان الخليفة إلى الخان ، فوقعتْ أنظارُها عَلى عَلّى الزئبق وهُو واقفٌ بجانب الطريق ينظرُ إليها ، فتأمَّلتْهُ فوجدتهُ يرتدى ملابسَ كملابس أحمد الدنف ورجَاله ، ولكنَّهُ ليسَ منهم ، ورأتْ فيه شابًّا تبدو عليْه علاماتُ البأس والقُوَّة ،

وقرأتْ فى عيْنيْه نظرات صارمةً تلوحُ فيها مخايلُ النَّباهة والذكاء . فأحسَّتْ دليلةُ بشيءٍ من الرَّهبة عند رُؤيتها هذا الشَّاب ، وعادتْ إلى ابنتها بالخان وقد استحوذ عليها التفكير بشأن هذا الشَّاب .

ولاحظتْ زينبُ ما عليْه أمُّها ، فعرفتْ أنها مشغولةٌ بأمر ذى بال ، فسألتها :

ما بك يا أمَّاهُ ؟!

قالت دليلةُ :

لقد رأيتُ اليومَ بالطريق شابًّا طويلَ القامة ، متينَ البُنيان ، مفتولَ العضلات ، يلبس مثلَ ملابس أحمد الدنف ورجاله ، ولكنَّه ليسَ منهم ، وقد لاحظْتُ أنه ينظرُ إلىَّ نظرات متفحصةً غريبةً ، فداخلنى فى أمره شك ، وأخشى أن يكونَ أحمدُ الدنف قد أتىَ به لينتقمَ لهُ منَّا بعد أن أخذتِ ملابسه وعرَّيتِ رجاله .

فقالتْ زينب :

لا تخْشى شيئًا يا أمى ، فوالله ما يقدر علَىَّ وعليكَ أحدٌ .

قالتْ دليلة :

ائتنى يا ابنتى بتخْت الرَّمل حتَّى أضربَه ، وأنظرَ ما فيه ليطمئنَّ قلبى .

فأتتْ زينبُ أمها بتخت الرَّمل ، فجعلتْ تخططُ فيه بإصبعها ، وتحسبُ وتقرأ ، ثم قالتْ لابنتها :

لقدْ رأيتُ فى الرَّمل أنَّ هذا الشخصَ مقربٌ من أحمد الدنف ،

وأن سعده سيغلبُ سعدنا ، وأن نجمَه سيعلو نجمنا . فماذا ترين فى هذا الأمر الجلَل ؟ !

قالتْ زينبُ :

لا تحملى همًّا لذلك ، وسترين ما أنا فاعلةٌ معَه . عرفينى فى أى ناحية من المدينة رأيت هذا الشَّاب ؟

فلما أخبرتْ دليلةُ ابنتها عن الطريق الذى شاهدتْ فيه علَيًّا الزئبق ، نهضَتْ هذه فارتدتْ أفخرَ ما عندها من ثياب ، وتحلَّتْ بأثمن مَا عندها من حُلى ، وتجملَتْ ، وتعطَّرت ؛ ثم غادرت الخان .

وسارَتْ زينبُ إلى النَّاحية التى أخبرتها أمها أنَّها قد شاهدتْ الشابَّ بها . ثم راحت تخطر هُنا وهُناك حتى لمحتْه يسيرُ بإحْدى الطرقات ، فعرفَتْه من شَكله ومَلْبَسه اللذين وصَفَتهما لهَا أمها .

فسارتْ زينبُ حتى اقتربتْ من على الزئبق ، وزاحمَتْه ، وتصَنَّعتْ الاصْطدامَ به ، ثم صَاحَت :

آه . . . لقد التوَتْ قدمى . . !

فأمسكَ على الزئبق بيد زينب ليُعينها على السَّيْر . وهو يعتذر عمَّا سَبَّبهُ لها من ألم .

فقالت زينب :

لا علَيك من هذا ، وإنما الذنبُ ذنبى ، لأنى كنتُ مسرعَةً فى سيرى فلمْ أنتبه لك .

فقالَ علي مستفسرًا :

وهلْ زالَ ما برجْلك من الألم ؟

قالتْ زينبُ :

ما أزَالُ أشعرُ ببَعْض الألم في قدمي ، وأكونُ شاكرةً عاوَنتَني على السَّير حتَّى أصلَ إلى داري .

فسرَّ عَلي من عَرض الفتاة عَليْه مُصَاحبَتها ، وسا وهو مُمسكٌ بيدها ليُعاونها على السَّيْر وزينبُ تتَصنَّعُ إظهارًا لما بقدمها من ألم مزْعُوم .

وسألَ علي زينَب :

هل تسكُنين قَريبًا من هُنا ؟

قالت :

نعمْ ، فمنزلُ زَوْجي قريبٌ من هُنا ، وأنا ما تعوَّدتُ أنْ بيتي أبدًا ، ولكن اليومَ ضَاقَتْ نَفسي فخرجْتُ أروِّحُ عنْها فتصَادمتُ بك ؛ فمَن أنتَ يا سيدي ؟ وأينَ تقيم ؟

فقالَ علي :

أنا اسمي عليّ الزئبق المصري ، وأقيمُ بقاعة أحمد الدنف ، وقد أنا أيضًا لأروحَ عن نَفْسي بالسَّير في شوارع بغداد فالتقيتُ وأنا ملزم الآنَ أن أوَصّلك إلى دارك سَالمةً .

قالتْ :

وأنا ملزَمةٌ أن أدعوَكَ إلى بيتى لأقدمَ لكَ ما يَجبُ على المضيف نحو ضَيْفه .

وسارَتْ زينبُ وهى تتكىءُ عَلى ذراع على الزئبق حتى دخلتْ إلى حارة بها بابٌ مُغْلق ، فوقَفَتْ ، وجعَلَتْ تبحثُ بينَ أثوابها ، وتُفَتش بينَ طيَّات مَلابسها ، ثم قالَتْ :

آه . . . لقد سقَطَ منى المفتاحُ ... والآنَ ماذا عساى أنْ أفْعَل . . ؟!

ثم التفَتَت إلى على وقالت :

يا سيدى ؛ ساعدنى وافتحْ لى هَذا البَاب .

قال :

وكيفَ أفتحُ بابًا بغير مِفْتاح ؟

قالت :

اكسرْ رتاجَه وافْتحه .

قال :

من فَتحَ بابًا بدون مفتاح كان مجرمًا وَجبَ تأديبه .

قالت :

ولكن البابَ بابى ، وأنا أطلبُ منكَ ذلك . فلا بأسَ عليكَ إن فعَلْت . . أنا أفتحه .

وخَلَعتْ زينبُ إزَارها ونقابها ، فأبدتْ بذلكَ جمالها ، وأظهرتْ

زينتها لعينىْ عَلىّ، ثم أقبلَتْ على الباب تهزُّه بعنْف وتُحاول فتْحه.

ورأى عَلى منْها ذلكَ فلمْ يسعْه إلاَّ أنْ يتَقَدم لمساعَدتها فى فتحْ الباب. ولم يمض إلا القليلُ حتّى كانَ البابُ قد فُتِح فدخلَتْ زينبُ ودعتْ عليًّا إلى الدُخول فقال:

وكيفَ أدخلُ فى دار لا أعرفُ صَاحبَها...؟! وكيفَ تدعينَنى للدخول وأنا غريبٌ عنْك...؟!

قالتْ:

لأكرمك عَلى ما فعَلْتَ مَعى من مَعْروف، ولأقدمَ لكَ ما عَلىَّ من واجب الضيافة.

وحَاوَل عَلى أنْ يعتْذرَ وينصرفَ، ولكنَّ زينبَ أقسمَتْ عليْه إلاَّ أنْ يدخلَ وهى تقُول:

يا سيدى اجْبُر خَاطْرى. ولا تكْسر نَفْسى.

فدخَلَ عَلىٌّ الزئبَق، فأجْلَسَتْهُ بفناء المنزْل، ثم دخَلَتْ إلى الدار فأحضَرتْ سُفرةً بها بعضُ الطّعامَ والشّراب، وجلَسَتْ معهُ يأكلان ويَشربان. ثم قامَتْ إلى البئْر فملأتْ منْها دلْوًا، وأحضرَتْهُ إلى عَلى حيثُ أخذَتْ تصُبُّ لهُ على يديْه ليَغْسلهما، وبينما هى تَصُبُّ لَهُ الماء نظرَتْ إلى أصْبعها ثم صَاحَتْ بلَهْفَة:

خاتمى... آه لقد سَقَطَ منى الخاتم فى البئر..!

فسألها.



كيف تدعيننى للدخول وأنا غريب عنك ؟ !

وكيف سَقَطَ منك ؟

قالتْ :

لأنَّهُ واسعٌ عَلى إصْبَعى ، فهو فى الحقيقَة ليسَ خاتمى ، بلْ هو خاتمٌ من الياقوت رَهَنَهُ رَجلٌ عنْدَ زوجى على خمسْمائة دينار ، فأخَذْتُه أنا ولبستُه بعد أنْ دسَستُ بينَه وبينَ إصْبَعى قطعةً من الشَّمع ليضيقَ ، فلَمَّا ابْتلَّتْ يدى بالماء سَقَطَ دوُن أنْ أدرى .

آه يا سَيدى دَلّنى فى البئر حتى أبحثَ عَن الخاتم فى قاعها قبلَ أن يأتى زَوْجى وتسوء عاقبتى .

فقالَ على :

وهَلْ يصَحُّ أن تَنْزلى أنت وأبقى أنا . . . ؟ ! إنَّ هذا لا يجُوزُ ولا يَليقُ !

ثم قامَ من فوْره فنزَعَ عنهُ ملابسهُ . واتَّجَهَ إلى البئر . ورَبطَ نَفْسَهُ فى الحبْل ، ثم قالَ لزَينبَ :

أمْسكى الحبلَ ودلّينى فى البئر .

ثم اعتَلى حافَة البئر وأدلى نَفْسَه فيها ، وأمسكَتْ زينبُ الحبْلَ تُرخيه شيئًا فشيئًا وعلى يهبط إلى قاع البئر رُويداً رُوَيداً .

فلمَّا انتهتْ زينبُ منْ إدلاء الْحبل صَاحَتْ عَلى عَلىّ تقُولُ :

فُكَّ نفسَكَ من الحبلْ وانزل إلى قاع البئر للبَحث عَن الخاتم .

وكانَ جدارُ البئر أمْلسَ حتى سَطْحَ الماء، ومنْ تحت سطح الماء

مُدرَّجٌ ذو درجات يستطيعُ مَنْ ينْزلُ أنْ يضَعَ علَيْها أقدامهُ ، ففَكَ على نفسه . وأخذَ ينزلُ عَلَيْها درجةً بعدَ درَجَةً للبحْث عن الخاتمَ .

أمَّا زينبُ فقد جذبَتْ الحبلَ ثم ذهبَتْ فأعادتْ سُفرةَ الطَّعام إلى مكانها من الدار ، وائتزَرَتْ بإزَارها وحَزَمتْ ملابسَ علَى فى حُزْمة حمالَتها تحتَ ذراعها ، ثم غَادرَتْ الدار عائدةً إلى أمها بالخان .

واستقْبَلَتْ دليلةُ ابنتها بقوْلها :

ماذا فَعَلْت يا زينبُ ؟

فضَحكتْ زينبُ وألقَتْ إلى أمها بملابس عَلى الزّئبَق وقالتْ :

لقَدْ جرَّدتُ لك عَليًّا الزئبَق المصرى من ملابسه ، وتركْتُهُ فى قاع بئر منزل مُساعد صَاحب الشرطة ينْتَظرُ أنْ يبعثَ اللهُ إليْه مَنْ يُنْجده.

كانَ مساعد صاحب الشرطة هذا رَجُلاً أعزَبَ . يعيشُ فى داره مَعَ خادم لهُ . يخرجُ صَبَاحًا إلى ديوان الشرطة معَ خادمه . ثم يعودُ معهُ إلى داره إذا ما انْتَهى عَملَهُ . وكانتْ زينبُ تعلمُ عَنْ مُساعد صاحب الشرطة أمرَهُ هَذا ، لذا تخَيَّرتْ دارَه لتقُودَ عَليًّا إليها لتَفْعَلَ مَعَهُ ما فَعَلَتْ .

وَحَانَ وقتُ عوْدة صَاحب الدار إلى داره ، فعاد إليها مَعَ خادمه، ومَا كادَ يقْتربُ من الباب حَتَّى وَجَده مَفْتُوحًا . فسألَ خادمَهُ :

ألم تُغْلق البَابَ قبلَ أن تخرجَ صباحًا ؟

قالَ الخادم :

بلْ أغلقتُه يا سيدى بالمفتاح .

قالَ السيد :

ها هو ذا أمامكَ مفتوح . . . !

ولاحظ الرجلُ ما بالباب من كسر فصاح :

لقد دخلَ بيتى لص .

وأسرعَ الرجلُ وخادمُه بالدخول إلى الدار ، وأخذا يفتشان هنا وهناكَ ، فلمْ يجدا أحداً ووجدا كلَّ شىْء على حاله ، فتعجبا من هذا الأمر ، وأخذا يتساءلان عن سرّ هذا اللص الذى اقتحمَ البابَ ، ثم انصرفَ دون أن يسرقَ شيئاً .

ولما أعياهما التفكيرُ فى الأمر قالَ الرجلُ لخادمه :

ما علينا . . ائتنى بدلو ماء حتى أتوضأ وأصلى، ثم اذهبْ أنتَ لإحضار نجار يُصلحُ ما أصابَ البابَ من تلف .

فذهبَ الخادمُ إلى البئر ليملأ لسيده الماءَ ، وأدلى الدلو فى البئر ، ثم ابتدأ يرفعُه ، فأحسَّ بثقل شديد فيه لم يعهدهُ من قبلُ فأطلَّ برأسه ليرى علةَ هذا الثقل ، فوجد الدلوَ وقدْ تعلقَ به شبحُ رجل . . فألقى بالحبل من يده مذعوراً . وجرى نحوَ سيده وهو يصيحُ :

عفريتٌ بالبئر . . . عفريتٌ بالبئر . . .

فاستفسرهُ سيدُه عن الأمر . فأخبرَه بما رأى .

فذهبَ الرجلُ معَ خادمه إلى البئر ليتعرّفَ صحّةَ ما يقول ، فسمعَ صوتًا ينادى منْ قاع البئر أن :

أخرجونى . . ! أنقذونى . . . أغيثونى . . . !

فقالَ الرّجلُ لخادمه :

والله ما أظُنّ هذا إلاّ اللصّ الذى اقتحمَ البابَ . شعَرَ بدخُولنا فاختَبأ فى البئر !

وأخذَ الرّجُلُ وخادمُهُ يرفعَان حبْلَ الدلْو حتى استطاعا أن يتَبيّنَا ما فيه ، فوجَدا رجلاً يجْلسُ به ويتَشَبّثُ بحبْله ، فسألَ صاحبُ الدار :

منْ أنتَ . . ؟ أإنْسى أمْ جنىٌّ ؟ !

قالَ علَى :

أنا رجُلٌ إنْسى ، فأخرجُونى !

قالَ صاحبُ الدار :

ما أنتَ إلاّ اللصّ الذى اقْتَحم الدارَ .

ثم قالَ الرّجُلُ لخَادمه :

هيّا نرفعُهُ ، ونقبضُ علَيْه ، ونَسُوقُه إلى السجْن .

فقالَ علَى :

ما أنا بلص ، ولكنْ ارْفعُونى حتّى أقُصّ عليْكم خبَرى .

فرفعَ صَاحبُ الدار وخادمُه الدّلو حتّى أخرجَاهُ . وكان

فيه علىٌّ عَاريًا إلاَّ منْ سرْوَال قدْ التَصَقَ بجسمه من البَلَل ، فقالَ لَهُ صاحبَ الدار :

مَنْ أنتَ ؟ اصْدقنى القَوْلَ ، وقُص عَلىَّ خَبَرَكَ ، وإلاَّ زَجَجتُ بكَ فى السجن .

فقصَّ عَلى خبرَهُ منْ أوَّله إلى آخره بينَ دهْشة صَاحب الدار وعَجَبه . فلمَّا فرغَ من قصَّته ، قالَ صَاحبُ الدار :

إنَّ قصَّتكَ هذه عَجيبَةٌ غريبةٌ لا يُصَدِّقُها العَقْلُ ، فما غرضُ هذه المرأة من إلقَائك فى البئر ؟ وما غايتُها منْ أخذ ملابسك ؟!

فقالَ عَلى :

لا علمَ لى إلاَّ ما أخبَرْتُكَ به ، وأنا بيْنَ يديْكَ فافْعلَ ما تشاء.

فلمْ يسعْ صاحبُ الدار إلاَّ أن يُعْطى عَليًّا شيئًا منْ ملابسه ، لَبسهُ وغادرَ الدارَ .

٩

وسارَ على حتَّى وَصَلَ إلى إيوان أحمد الدنف الذى كان إذْ ذاكَ مجتَمعًا معَ رجَاله الأرْبعينَ وحسنْ شُومان وهُمْ يتَساءلُونَ عن السَّبب فى خرُوج على الزئبَق وَيتكَّهنُونَ عن السر فى غيْبَته . .

ودخَلَ عَليهم عَلىٌّ الزئبقَ ، فما كادوا يرونَه بردائه الذى أعطاهُ لهُ مساعد صَاحب الشرطَة حتَّى سَألُوهُ بدهْشة :

أينَ كنتَ يا عَلىُّ ؟ ! وأينَ مَلابِسُكَ ؟ !

فجلسَ علىّ بينهم يقُصّ عَلَيْهم قصَّتهُ ، وما كانَ من أمره ، فلمَّا فرَغَ قالَ لَه أحمدُ الدنف :

أما قُلْتُ لكَ لا تخرُجْ ، فهاهُنا نساء يَضْحكْنَ عَلى الرجال ؟!

وضَحكَ على كتف الجمَل وقالَ لعلى الزئبَق :

أتكونُ يا عَلى رئيسَ شُطار مصرَ ، وتضحكَ عليْكَ صَبيَّة ؟ !

فقالَ حسن شُومان : .

أتقولُ ذلكَ ياعَلى كتَف الجمَل . . . ؟ ! أما عَرَّتْك هذه الصَّبيَّة ، وعَرَّتْ رفاقَكَ ورَئيسك ؟ !

فتساءلَ عَلى الزئبق :

كيفَ كانَ ذلك ؟

فقَصَّ عليَه حسن شُومان ما كانَ من أمر دليلة . وما كانَ منْ أمرْ زَينْبَ ، ثم ما كانَ منْ أمره معهُما وكيْفَ صَارتْ أخيرًا بوابَّةً لخان الحمام الزَّاجل .

فقالَ عَلى الزئبَق :

ولكنْ هذا عارٌ علَيْكمُ . . ! كيْفَ تسْكُتُون عَلى أخذ ملابسكُمْ ؟ !

فقَالَ حسن شُومان :

فها هيَ ذى زينبُ قد أخذتْ ملابسكَ أنت الآخر ، فماذا انتويتَ

أنْ تفْعل ؟

فقالَ علىّ :

ما دمتَ تعرفُها فساعدنى حتّى أعملَ معها حيلةً أستردَّ بها ملابسى وملابسَ رئيسى أحمد الدنف وملابسَ رجاله ، وبعدَ ذلك سأعرفُ كيفَ أرْغمها على الزّواج منىَ .

فقالَ حسن شُومان :

ما دامَ الأمر كذلك ، فاعملْ بما أشيرُ به علَيْك .

قالَ على :

هأنذا على استعداد لتنْفيذ ما تُشيرُ به .

فقالَ حسن شومان :

قُمْ ، ادخلْ إلى إحْدى القاعات واخْلع ملابسك .

فنهضَ علىٌ ليعمَلَ بما أشارَ به حسن شومان ؛ أما حسن شُومان فإنه أحضرَ مادةً سوْداءَ غلاها فى شىء من الماء فصارتْ مثل الزّفت الأسود ، ثم دخلَ إلى على الزئبق فطلَى وجههُ وجسمهَ بها ، وكحلَ عينيْه بكُحْل أحمر . فصارَ علىٌ حالكَ السّواد لامع اللّوْن مثلَ العبد الأسْودَ .

وأتى حسنُ شومانُ لعلى بملابسَ مثل ملابس الطهاة والخدم فألبسه إياها ثم قالَ لهُ :

الآنَ قد صرتَ شبيهًا بطبّاخ خان الحمّام الذى تحرسهُ دليلةُ ..!

فاعلمَ أنَّ هذا الطبَّاخَ يُغادر الخانَ إلى داره كُلَّ ليلة بعدَ أنْ يقومَ بما عَليْه من إعداد مائدة دليلةَ وابنتها ، وعَشاء الأربعين عَبْداً ، وإطعام كلاب الحراسَة ، وفى الصَّباح يذهبُ إلى السوق لشراء اللحْم والخضر اللازمين لطعام اليوم التَّالى ، أما باقى مَا يلزَمُ المطبَخَ من مَوادَّ أخرَى . فهىَ مخزونَةٌ بكَرار الخَان ومطبخه وهو يحملُ مفاتيحهُما. والمطلوبُ منْكَ الآن أنْ تعتَرضَ طريقَ هَذا الطبَّاخ عندَ مُغادرته الخانَ وتتعرفَ به ، ثُم تدعوه إلى طعَام من كباب وشراب من البوظة سأعدهُما لكَ ، فإذا ما شربَ البُوظة وسكرَ فاسأله عمَّا يفعلُ بالخان وعمَّا يطهو من طعَام وعنْ مفَاتيح المطْبخ والكرار ، وعنْ كُل ما يلزَمُك السؤالُ عَنْه لكى تنتحل شخصيتهُ ، وتذهب إلى الخان بدلاً عَنْهُ . فإذا ما وقفْتَ عَلى كُل ما يلزَمكَ فى ذلك فضعْ له البنجَ فى شراب البُوظَة ، وخذ منه المفاتيحَ والسَّلَّةَ التى يشترى فيها الطَّعَامَ . والبسْ ملابسه ، واذهب إلى السوق واشتر ما وَصفه لك ، ثم توَجَّه إلى الخان واطهُ الطعامَ . وأعِدَّ لكُل منْ بالخان طعامهُ ، وضَعْ لهمُ فيه جميعًا البنج . كل عَلى قدر طَاقته . فإذا ما تخَدرتْ دليلةُ وابنتها والكلابُ والأربعون عبْداً ، فادخل أنتَ إلى مسْكن دليلةَ وابنتها زينبَ وخذْ ملابسك وملابسَ رَئيسك ورجاله ، وانصرف قبلَ أن يفيقَ منهمْ أحدٌ ، وإذا كنتَ تريدُ حقًّا الزَّواجَ من زينبَ فما عَلَيْكَ إلا أنْ تحضر معكَ الحمام الزاجل وبعدَ ذلك ننظرُ ما يكُونُ .

فوافقَ عَلِىّ عَلى ما أشارَ به عَلَيْه حسن شُومان ، ثم سَارَ وإيَّاهُ حيثُ أرَاهُ حسن شُومان الخَان ، ثم تركهُ وانصرفَ .

وبَقِىَ عَلى يرصُدُ الخَانَ حتَّى مرَّ وقتٌ من الليل ، وإذا بالطَّباخ قدْ خَرَجَ ومَعَهُ سلتُه التى يضَعُ فيها الطَّعامَ الذى يشْتريه كلَّ صَباح من السوق ، فأقبلَ عَلَيْه على يعانقُهُ وَهُو يقُولُ بلهْجَة العَبيد :

كيْفَ حالكَ يا ابنَ العَم ؟ لقدْ مضى عَلَىَّ وقتٌ طويلٌ لم أركَ فيه فى البُوظة التى تَترددُ عَلَيها .

فقالَ الطَّباخُ معْتذرًا :

إنَّا مشغولٌ دائمًا بما عَلىَّ منْ خدمة مَنْ بالخان ، ولا أجدُ وقْتًا قطُّ للذهاب إلى البُوظة .

فقَالَ عَلى :

بالله عَلَيْكَ إلاَ جئْتَ مَعى الآن لنسمُرَ مَعًا ، حيثُ إلى قدْ أعددتُ طعَامًا منْ كبَاب ، وشرابًا من البوظة . . . فما نديمى اللَّيلَةَ إلاَ أنتَ . .

ثمَّ قادهُ إلى قاعَة منْ قاعات أحمد الدنف ، كانَ حسن شُومان قدْ أعدَّ لهُ فيها ما اتَّفَقَ عَلَيْه مَعَهُ من طعام وشراب .

وَجلسَ على وأجْلسَ قبالتهُ الطَّبَّاخَ ، وأخَذَ يُناولُهُ الكبَابَ ، ويصُبُّ لَهُ الشرابَ . حتى لعبتْ البُوظةُ برأس الطَّاهى ، فخفَّ

ثَباتُه ، وانطلقَ لسانُهُ بالكلام . .

فأخَذَ عَلى يسألُهُ عمَّا يوَدُّ الوقُوفَ عَلَيْه ، ويستَدرجُهُ إلى ما يَريدُ معْرفَتهُ حتَّى عرَفَ منْهُ عادات أهل الخان ومَوَاعيدهم فى الطعام والشراب ،وعرَفَ منْهُ ألوانَ الطعام التى طَلَبوها ليطهُوَها لهمْ فى اليوم التالى ، عندئذ أذابَ عَلى للطَّاهى قُرصًا من البنجْ فى شراب البُوظة الذى يقدمُهُ له ، فما إن شربهُ الرَّجلُ حتى مالَ رَأسُهُ على صَدره ، ثم انْقلَبَ عَلى الأرض ، فخفَّ إليْه عَلىٌّ فخلَعَ عَنْهُ ثيابهُ فلَبسَها ، وأخذَ حلقَةَ المفاتيح التى وَجَدها مَعَهُ فَدسَّها فى جيبه ، وانتظر حتى انبَلَجَ نورُ الصَّباح فخرجَ إلى السوق ليشترى ما كانَ الطبَّاخُ عازمًا على شرائه من الحاجات .

وبَعْدَ أنْ فَرَغَ عَلى منْ مُهمته هذه . حمَلَ ما اشتَراهُ فى سلة الطَّاهى ثمَّ اتَّجهَ إلى الخَان .

وكانتْ دليلةُ إذْ ذاكَ تَجْلسُ بمدخَل الخان ، فما إنْ رأتْ عَليًّا وَهُوَ يدخُلُ بزى الطَّباخ حتَّى تشككتْ فيه وَرَابها أمْرُهُ ، فصَاحَتْ عَلَيْه :

إلى أينَ تَذهبُ أيها اللصُّ ؟ !

فالتَفَتَ إليْها على وقالَ لها بدهشة :

أتخُاطبينى أنا أيتها البَّوابةُ دليلة ؟

قالتْ :

نعَمْ ، فما أنتَ بالعبد الطبَّاخ الذى يطبُخُ لنَا .

فقالَ وَهُوَ يتصنَّعُ الغضَبَ :

وَمَنْ أكونُ إذنْ إذا لمْ أكنْ الطبَّاخَ ؟!

قالتْ :

علَى الزئبق المصرى ، جئت لتعمَلَ معى متنكرًا لتنتقمَ لنفسك ولرئيسك . . .

ثمَّ صاحتْ :

قُلْ لى أينَ سَعْد الله الطباخ ؟! وماذا فعَلْتَ معَه ؟!

فقالَ لها علَى :

أنا سَعْدُ الله ، ومَا أنا بمصرىّ ، المصرىُّ أبيضُ أو أسوَد . . ؟!

أنا لنْ أمكُثَ عندكمْ ولَنْ أطبخَ لكُمْ بعدَ الآنَ .

وكَانَ العَبيدُ الأربعونَ قدْ اجتَمعُوا علَى صياح دليلةَ مَع علَى ، فلمَّا سمعُوهُ يهددُ بترْك الخدمة ومُغادرَة الخان ، التفوا حوْلهُ يستَفسرُونهُ عنْ أمْره ، ويَستوْضحُونهُ خبَرَهُ ، وهُمْ يقُولُونَ لهُ :

ماذا بكَ يا ابنَ العَم ؟ ومَاذا يُكدرُكَ ؟

فقالتْ دليلةُ :

مَاهُوَ بابن عَمكُمْ ، بَلْ هُوَ رَجُلٌ آخرُ قدْ صبَغَ جلدهُ . . !

فقالُوا :

بَل هُوَ ابنُ عمنا سعْدُ الله الطبَّاخ .

فقالتْ :

سأرُيكُمْ منْ هُوَ .

ثمَّ نهَضَتْ فأتتْ بدهان دهَنَتْ به جلْد ذراع عَلى ، ثمَّ أخذتْ تحكهُ محَاولةً إزالة اللوْن الأسْود الذى به ؛ وَلكنَّ ذرَاعَ على بقىَ عَلَى ما هوَ عَليْه ، لمْ يتَغيّرْ لَوْنهُ . فقالَ العَبيدُ لدليلةَ :

إنه ابنُ عَمنا ، فدعيه يدخُلُ ليطهُولنا الطّعام .

فقالتْ دليلةُ :

إن كَان ابنُ عَمكُمْ فَسلوُه كمْ لوْنًا من الطعام يطبخ لكُمْ كُلَّ يوْم ؟ وما الذى طَلَبْتُمُوْه منْهُ أمس ليطبخهُ لكُم اليوْمَ ؟

فَسَألُوُه ، فأجابَ :

أطبُخُ لكُمْ خمْسَةَ ألوان كُلَّ يوْم ، واليَومَ زدتمْ عَليْها لوْنَين ، هُما : مَا ورْدية ، وحَبّ الرُّمّان .

فقالُوا :

صَدقتَ ، ادخُلْ فما أنتَ إلا ابنُ عَمنَا .

فقالتْ دليلةُ :

إذنْ ، ادخلُوا مَعَه ، فإنْ عَرفَ الطريق إلى المطْبخ ومخَازن الطعام يَحقُّ لكُمْ أنْ تتركوُه ، وإلاَّ فاقتُلُوُه شرَّ قتْلَة .

كانَ لدىَ سَعْد الله الطّبَّاخ قط ربّاهُ عَلى نفايات اللحْم التى كانتْ تتجمعُ لديه بالمطبخ ، لذا كانَ القطُّ كُلّما رآهُ مُقْبلاً بسلّته

يُسرعُ إليْه فيتلَقَّاهُ بالفرَح والمواء ، ثمَّ يسيرُ أمامهُ إلى المطبخ ينْتظرُ ما يُلقيه إليْه منْ عظم ولحم .

فلمَّا رأىَ القطُ علَيًّا داخلاً فى ملابس الطبَّاخ ، يحملُ السَّلَّة تنبعثُ منها رائحة اللحم — أسرَعَ إليْه يتمَسَّحُ به ، ثُمَّ أسرَعَ يجرى أمامهُ إلى باب المطبَخ ، ثُمَّ ينْتظرُهُ بَعتَبته . .

وأدركَ علَى بالبديهة أنَّ هذا هُوَ المطبَخُ ، وحَمِدَ فى نفْسه للقط تصرُّفَهُ ، فأخرجَ حلْقةَ المفَاتيح منْ جيْبه ليفتَحَ البابَ ، وهُنا سقطَ فى يد علَىّ . . ! لَقدْ نسىَ أنْ يعْرفَ منْ سَعْد الله الطَّبَّاخ أىَّ مفتاح هُوَ مفتاحَ المطبخَ ، وأىَّ مفتاح هُوَ مفْتَاح الكرَار . . !

ونظرَ علَى إلى المفَاتيح يَسْتلهمها ، فرأى منْ بينها مفْتاحًا قدْ علقَتْ به آثار الدَّم والريش . فأدرك أنَّ هذا المفتاحَ ما هُوَ إلاَّ مفتاحُ المطبخ ؛ فأدخلْه فى القفل ، وأدارهُ فانفَتَحَ البَابُ ، فدخَلَ فوضَعَ سَلَّةَ الخضَار واللحم . ثمَّ أخذ المفاتيحَ ونَظَرَ إليْها فوَجَدَ منْ بَيْنها مفتَاحًا يلمعُ منْ آثار الدهن والسَّمن . .

فأدرَكَ أنَّ هذا هُوَ مفتاحْ المخزن . فخرجَ فجَرَى القطُ أمامَهُ إلى باب المخزْن . فعرفَهُ . وأدار فيه المفتاحَ فَفَتَحهُ وَدخَلَ .

فقالَ العبيدُ لدليلة :

ها قدْ سارَ إلى المطبخَ والمخْزَن . وعرَفَ مفَاتيحَ كُل منهما

منْ بين مجمْوُعَة المفاتيح .

فقالتْ دليلةُ :

إنّهُ ما عَرفَ المطْبَخَ والمخزَنَ إلاّ من القط ، وعَرَفَ المفاتيح بالبديهة ، إنّ هَذا أمرٌ لا يجوُزُ عَلىّ .

قالَ العبيدُ :

دعيه يَطْبُخُ لنَا الطعامَ ، فما نَشُكُّ فى أنّهُ ابنُ عَمنَا .

وانصرَفتْ دليلةُ والعَبيدُ ، وشمّرَ عَلى عَنْ ساعد الجد . فَطَبَها الطّعَامَ ، وأعدّ لكُلِ منْ دليلةَ وابنتهَا والعَبيد مَوائدهُمْ حَسَبَ الإرشادات التى أرْشدهُ إليها الطباخُ ، وقد مَزَج بطعام الجميع البنج . فما إنْ فَرغُوا منْ طعامهم حَتّى كانَ مَفْعولُ البنج قدْ تَصَاعدَ برُءوسهم ، وسرَى فى أجْسَامهمْ ، فمالُوا إلى الأرض ثمّ ما لبثُوا أنْ راحُوا فى سُبَات عَميق .

وحَمَلَ عَلى إلى كلاب الحراسَة ، التى تطْلَقُ لحراسَة أبرَاج الحمام نصيبها من اللحم ، وكانَ قد دهَنَهُ بالمخدر أيضًا ، فما لبثت الكلابُ أن لحقت بأهل الخان وأدركتها غَيْبُوبةٌ طويلةٌ .

وخَلاَ جَوُّ الخان لعلىٍّ . . ! وتمّ التدبير كمَا رسمَهُ لَهُ حسَنُ شُومان ، ولمْ يبقَ عَلَيْه إلاّ أن يبحَث عن الملابس التى غَامرَ منْ أجْلهَا . .

وصَعِدَ عَلى إلى الجنَاح الذى تَسْكُنُهُ دليلةُ وابنَتُها من الخان :

وجاسَ خلالَ غُرَفهُ وقاعاته ، حتى دخلَ إلى قاعة وَجَدَ جُدرَانها يتدلىَّ عَلَيْها مقدارٌ كبيرٌ من الثياب ، عرَفَ فيها ملابسهُ وملابسَ رئيسه ورجاله .

ومَا هيَ إلاَّ بُرهَةٌ وَجيزَةٌ حتَّى كانتْ الملابسُ التى كانتْ ترَفرفُ عَلى الجدران قد حُزمَتْ فى حُزم ، وبجوارهَا حمامُ الرَّسائل قد جُمعَ فى قفص استعداداً للتَّقْل !

وحَمَلَ عَلىٌّ هذا وذاكَ ، ثمَّ غَادر الخانَ بعدَ أن عَلَّقَ فى رقبة دليلةَ وَرَقَةً كُتبَ فيها :

مَا فَعلَ هَذا إلاَّ على الزئبَق المصرى .

ووضَعَ أمامَهَا إسفنجَةً مُشْبعَةً بسَائل يُنبهُ مَنْ خدر بالبنج .

وسارَ عَلى إلى إيوان أحمد الدنف . فما إنْ رَأوْهُ . ورَأوْا ما أتى به حتَّى قامُوا إليْه فرحينَ يُعانقونَهُ ويُقبلُونهُ ويهَنئونهُ بالسلامَة .

وأخذَ كُلٌّ واحد منهم ملابسهُ فلَبسها .

أمَّا حَسَن شُومان فقَدْ نهضَ منْ فَوْره فأتى بلفافة بها عُشْبٌ غَلاهُ فى الماء ، وغسَلَ به عَليًّا غَسْلا جَيداً . فعَادَ جلده إلى ما كانَ عليْه منْ قبْل ، وظَهرَ عَلى حقيقته .

ودخَلَ عَلى إلى سَعْد الله الطَبَّاخ ، فألبسهُ ملابسهُ . وشمَّمهُ

السَّائل المضَادَّ للبنج ، فأيقظَهُ مِنْ سُبَاته وأعطاهُ سَلته ، فأخَذهَا الطبَّاخ وغَادر المكانَ مُتَوجهًا إلى السوق لشراء ما كانَ بصَدد شرائه فى ذلكَ اليَوم !

أمَّا ما كانَ مِنْ أمْر سُكَّان الخان ، فقدْ قيَّض اللهُ لهُمْ رَجُلا يسْكُنُ بجوار الخان ؛ أتى ينشدُ دليلةَ فى أمْر من الأمور ، فإذا بابُ الخان مفتُوحٌ ، ومكانُ دليلةَ خال منها . فدخَلَ الرَّجُلُ يُنادى دليلةَ لعَلَّها تَردُّ نداءه ، أوْ لعَلَّ أحَداً منَ العَبيد يجيبهُ ؛ فلمْ يتَلقَّ جَوابًا من هذه ولا من أولئكَ . فَعَجبَ الرَّجُل منْ هَذا الأمْر الغريب . . فما عهد أنْ تترُكَ دليلةُ بابَ الخان مفتُوحًا دونَ حرَاسَة ، ولاَ أنْ يَدخُلَ أحدٌ إلى الخان دونَ أن يَبْصُرَ به عَبد من عبيد الخدمَة ، أو كلْبُ من كلاب الحراسة .

ولمْ يجد الرَّجُلُ بدًّا من أنْ يدخُلَ ليتعرَّفَ سرَّ هَذا الأمْر . ومَا كادَ يُشرفُ عَلى فناء الخان حتى وَجَدَ دليلةَ فى صَدره مُستلقيَةً على الأرْض ؛ فناداها ، فلمْ تُجب النداء ، فاقتربَ منها ، فوجد فى رقبتها الوَرَقَةَ التى علقها بها عَلى الزئبق ، وأمامَها الإسفنْجَةُ المشْبعَة بمضَادّ البنج ، وبجانبها ورَقة تُبين ذلك ؛ فعَرفَ أنَّ دليلةَ مخدرَة ، فقرَّب الإسفنجَةَ منْ أنفها ، فعَطستْ ، ثمَّ ابتدأتْ تُفيق ، وتدب فيها الحياةُ . . !

فلمَّا أفاقَتْ شرحَ لهَا الرَّجلُ ما كانتْ عليْه ، وأرَاهَا الوَرقَةَ

التى كانتْ فى رَقَبَتها ، وسألها عنْ صَاحب الاسم المكْتُوب بها فَقَالتْ :

هُو اسمُ رجُل بينَنَا وبَيْنَهُ مكَايدُ ومَقَالب ، وقد جاءنا فى هيئة طَبَّاخ الخان فعَرفْته ، ولكنَّ العَبيدَ كابَرُوا وكَذَّبُونى وتَركُوهُ ليَطبُخَ لَنَا الطَّعامَ ، ويَضعَ لَنَا فيه البنج .

وَهبَّتْ دليلةُ قائمةً وهىَ تَقُولُ :

هَيَّا بنا لنرَىَ ما فَعلَ بابْنَتى ، وما فعلَ بالعَبيد .

ووَجدتْ دليلةُ ابنتها والعبيدَ جميعًا فى سُبات عَميق ، فَعَملتْ هىَ والرَّجُلُ عَلى إيقاظهمْ ، فلمَّا أفاقُوا قالَ العَبيد :

مَن فَعلَ بنا هَذا ؟

قالَتْ :

فَعَلَ بكمْ هَذَا عَلىّ الزئبَق المصْرى ، الذى حَذَّرتُكُم منه وَلكنَّكُمْ كذَّبْتمونى وأعْرَضْتُمْ عَنْ كلامى .

وأسرعَتْ زَينبُ إلىَ حيثُ كانت تُعَلق مَلاَبس عَلى الزّئبَق وأحمد الدنف ورجاله ، فلمْ تجد للملابس أثرًا ، وكانَت الطَّامَّةُ الكبرَى عَلى مَنْ بالخان جميعًا حينَ لم يجدوا حمَامَ الزاجل الخاص بالخَليفَة . .

وَفُجعَتْ دليلةُ . . وفُجعَتْ زَينبُ . . وفُجعَ مَنْ بالخان من العَبيد . . !

وفَكَّرتْ دليلةُ فيما أصَابهَا على يَد عَلى الزئبَق ، ثمَّ قَالَتْ للعبيد :

اكْتمُوا مَا حَصَلَ ، وَإيَّاكمْ أنْ تَبُوحُوا لأحد بشيء ممَّا جرَى .

ثُم نهضَتْ فخلعَتْ عَنْها ملابسَ الرجَال التى كانتْ ترتديها ، وَلَبستْ مَلابسَ النساء العَادية ، ولَفَّتْ حَوْلَ رقبَتها منديل الأمان ، ثمَّ غادرتْ الخانَ مُتوَجّهةً إلى إيوان أحْمَد الدنف .

وقَرعَتْ دليلةُ بابَ أحمد الدنف ، فقَالَ لرجاله :

افْتَحُوا . . . مَا بالْباب إلاَّ دليلة . . !

ودخلَتْ دَليلَةُ عَلَى الرجَال مجتَمعين ، فقالَ لهَا أحمدُ الدنف :

مَا جَاءَ بك يا عَجوزَ النَّحس ؟ !

قَالَتْ متوَسلة :

يا مُقَدم ، إنى أعتذرُ إليكَ عَمَّا فعَلَتُ ، وَعمَّا فَعَلَتْ ابْنَتى مَعَك ؛ ولكنَّك أدخلْتَ بَيْنَنَا رَجُلاً غَريبًا لَيْس من غلمانك وَلا منْ أهْل البلاد .

قالَ أحمدُ الدنف :

بَلْ هُوَ منْ أوائل غلْمانى ، وأبْرع رجَالى .

قالت :

إذنْ ، اعملْ مَعى مَعروفًا لنْ أنساهُ لكَ ، وكُنْ واسطةً بيْنى وَبَيْنَه كىْ يَرُدَّ لى الحمامَ الزاجل الذى أخذهُ منَ الخَان .

قالَ حسنْ شُومَان :

لَقَدْ ذبَح علَى الحمَام وَطَهَاه !

فقالَتْ دليلةُ جَزعَةً مُستَنْكرَةً :

أنا لا أصَدقُ هَذا القَوْلَ ، كيفَ تَذبَحُون الحمَامَ المدَرَّبَ الخَاصَّ بالخَليفَة . . . ؟!

قَالَ عَلى :

لقَد ذبَحتُه وأنا لا أعرف أنَّه حَمَامُ الرَّسائل .

قالت :

بل تَعلَمُون جَميعًا أنهُ حمامُ الرَّسائل ، ولَوْلَمْ تَكُونُوا تعلَمُون لمَا اهتَمَمْتُم بأن تأخُذوه لكى تُنْزلُوا غَضَبَ الخَليفَة عَلىَّ .

ائتونى بالحمَام حتَّى أعيده إلى مكانه قبلَ أن يَشْعُرَ بما جَرَى أحَد .

وكَانَ عَلى الزئبق وَحَسن شُومان يحضُران مجْلسَ دليلةَ مَعَ أحمد الدنف ، ويَسْتَمعَان لكلامها ، ويَريان تَذللهَا وخُضُوعَهَا .

فقَالَ أحمدُ الدنفَ لرجاله :

ائتوها بالحمام حَتَّى تراهُ .

فنَهضَ عَلىٌّ وحسن شُومان ، ودخَلاَ إلى إحْدى القَاعات ،

ثمَّ عَادا يحْملان وعَاءً به عَدَدٌ كبيرٌ من الحمام المحمَّر .

ونَظرتْ دَليلةُ إلى الحمام المطهُو ، فاضطرَبتْ شديداً ، وصَعدَ دمُها فى وَجهها ، وزاغتْ عيناهَا وارتعشَتْ يداها ؛ ولكنها كظمتْ غَيظَها ، وتقدَّمتْ من الوعاء الذى فيه الحمام ، وانتزعَتْ قطعةَ لحم من إحْدى الحمَامَات ، وَوضَعتها فى فمها ومضَغتْها ، ثم قالَت :

مَا هَذا اللحمُ بلحْم طير الرَّسائل . . . فإنى أعْلفُه حَبَّ المسك ، وبذلكَ يَصيرُ لحمُه مُشربًا بطَعْم المسْك .

فضَحكَ حسن شُومان وقال :

إنْ كنْت تُريدينَ استرداد حَمام الرَّسائل ، فلَنْ يَرُدَّهُ لك عَلى إلاَّ بشرْط .

قالتْ :

مَا هُوَ ؟

قالَ :

هُوَ أنْ تُزَوجيه من ابْنتك زَيْنَب !

قالَتْ :

ولكنى لا أملكُ أمرَهَا إلاَّ بالمعرُوف .

قالَ :

اطلُبى منها ذلك ، وأقْنعيها به .

قالت :

إن ابنتى لا يَستَهويها إلاَّ الشجَاعُ البارعُ فى عَمل المقالب ، المَاهرُ فى حبْك المكايد . فإنْ كَانَ عَلىٌّ الزئبق يُريد حقًّا الزَّوَاجَ من ابنتى فلْيَذهَبْ لخطبتها من خالها زُرَيق السَّماك الذى يجلسُ فى دكانه بسُوق السَّمك ، ويُنادى : « يا رطلَ سمك بدرهمين » ، وقد علقَ عَلَى باب دكَّانه كيسًا به منْ دنانير الذهَب ألفَان . . !

فقالَ أحمدُ الدَّنف محتدًّا علَيْها فى القول :

أتريُدينَ شرًّا - يأيتَّها المرأةُ الخبيثَةُ - بولَدنا عَلى ، كيفَ تُشيرينَ علَيْه بالذهاب إلى أخيك زُريق السَّماك ؟ !

فقالَ على :

كمَا تُريدُ ، سأعطيها الحمام ، وسأذهبُ إلى أخيها زُرَيق السَّمَّاك .

ثم نهضَ فأحضرَ لهَا قفَصَ الحمام ، فأخذَتهُ وانصرفَتْ وهى تكادُ تطيرُ منْ شدة الفرح .

وكانتْ زَينبُ بالخان تنتظرُ عوْدة أمها بفارغ الصَّبر ، فما إن رأتْها مُقبلةً بقفَص الحمَام حتَّى هتَفتْ بها :

باركَ اللهُ فيك يا أمَّاهُ ، ما رأيتُ مثلك شجاعَةً بينَ الرجال ، ولاَ مهارة بين النساء ! !

ماذا فعْلت معَ الزئبق حتَّى أخذت الحمامَ ؟ !

قالتْ :

إنَّه يودُّ الزَّواجَ منْك يا ابْنتى ، وَلكنى أحلْتُه عَلى خَالك زُرَيق السَّمَّاك ، ليخطبك منهُ ؛ وَبذلك نكونُ قدْ سُقْنَاه إلى مَوارد التَّلف ومَواطن الهلاك !

وكانَتْ زَينبُ قدَ أحَبَّتْ فى عَلىٍّ شَجَاعَتَهُ وحسنَ حيلَته ، وأَعْجَبَها منْهُ شَهَامَتُهُ وَعفَّتُهُ فَفَرحَتْ بخبر عَزمْه عَلَى خطبتَها ، ورَغْبَته فى الزواج مْنهَا ؛ ولَكنَّهَا سُرَّتْ لإحَالَته عَلَى خَالهَا زُريق السَّمَّاك ، فقَدْ عَزَمَتْ عَلَى ألاَّ تكُونَ زوجَةً لَهُ إلاَّ بَعدَ أنْ ترى مَا سَيكونُ بَينَهُ وبيْنَ خَالهَا ، وبعْدَ أنْ تمتَحنَهُ امْتحانًا عَسيراً صَعْبًا يُثْبتُ به مبلَغَ قُوَّته ومقْدارَ احتماله وشَجَاعَته .

أمَّا عَلَىٌّ فقَدْ سَألَ أحمدَ الدَّنف ورجَالَه :

ما شأنُ زُريْق هَذا ؟! ومَنْ يَكوُن ؟!

قالُوا :

لقَدْ كانَ رئيسَ فتيان أرْض العراق قاطبة . . ! يكادُ أنْ ينقُبَ الجبَل ، ويتَنَاولَ النَّجم ، ويسرَق الكُحْلَ من العَين .

ولكنَّه تابَ عنْ أفعاله هذه ، وفتَحَ لهُ دكانًا يقْلى به السَّمك ويبيعُه ؛ فجمعَ من ذلك ألفىْ دينار . ولكنَّ زُريقًا لم يَنْسَ حُبَّه للحيلَة ، ومَيْلهُ إلى معاكسة النَّاس ، فوضَعَ الألفى الدينار التى جَمَعها

فى كيس . وعَلَّقَ الكيسَ بباب دكانه بعْدَ أن رَبطَ بالخيْط الذى يُعَلقُه به جلاجل وأجراسًا تُنَبهه إلى منْ يريدُ أن يضَعَ يده علَيْه . وكلمَّا فتَحَ دكانه علق الكيس بالباب ، ونادى متحديًا :

أينَ أنتْم يا شُطارَ مصر ، ويا فتيان الطرق ، ويا صَعاليك بغدادَ ويا مهرَة بلاد العَجم . . . ! ! زُرَيق السَّماك قد عَلَّقَ كيسًا بباب الدكان ، فمن ادعى الشَّطَارَة ، وعَهد فى نَفْسه المهارة ، واسْتطاعَ أنْ يأخُذهُ بحيلة فهُو لهُ . . ! وقدْ سولَت للكثيرين من النَّاس أنفسهم الاستيلاء عَلى الكيس فلمْ يقْدرُوا ، واحتالوا عَلى ذلك بحيل كثيرة فلمْ يَستطيعوا ، بلْ كان نَصيبُهمُ منْ زُرَيقْ أن يرميهم بأقراص منْ رصَاص أعدها لهذا الغَرض ، فيعُودوا إلى أهلهم وديارهم بجرُوحهم وخزيهم . . وكذلك كفَّ النَّاسُ عَن السَّعْى وَراء هذا الطَّلَب العَسير ، ونَفَضُوا أيديهم من الجرى وراء صَيد بعيد المنال .

فقالَ عَلى :

سَوفَ لاَ يهدأ لى بال ، ولاَ يستَقرُّ لى قرَار ، حتَّى يكُونَ هـَذا الكيسُ فى يدى . . . !

قالُوا : إنَّا نخافُ عَليكَ يا عَلى عاقبةَ هـَذا الأمْر . ولاَ سيَّما أنَّكَ تبغى خطبَةَ زَينْبَ منْ خالها زُرَيق .

قالَ : لَنْ أخطبها إلاَّ بعْدَ أن يكونَ هـَذا الكيسُ حلاَلاً لى ، وسيَكُونُ مَا فيه بإذن الله مَهرًا لهَا . .

١٠

وعَلَى ذَلكَ صَحَّ عزمُ عَلِىّ .

وما أشرقَ صباحُ اليوم التالى حتَّى كانَ بسبيل الاستعداد والتَّجهز لهذا الأمْر.

فطلَبَ منْ أحمد الدنف ورجَالَه أن يأتُوُه بثياب امرأة ، فأتَوهُ بها، فلَبسَه وتجَملَ وتزَيَّن ، وأرسَلَ عَلى صدغَيه وكَتفَيه جدائلَ شعر ذهبى ، ثمَّ ائتزَرَ بإزَار ، وانتَقَبَ بنقاب ، وخَرجَ إلى الطريق فالتقى بحمَّار يعرض حمارَة للركوب ، فسأله بصَوت فيه طَرَاوةُ أصْوات النساء ، ورَقتها :

هلْ تعرفُ النَّاحيةَ التى بها دكانُ زُرَيق السَّماك ؟

قال الحمَّار :

نعم يا سيدتى .

قالَ :

أوصلنى إليه ، فإنى امرأةٌ حاملٌ ، وألقى فى المشى جهداً ومَشَقَّةً ، وقد اشْتاقتْ نفْسى إلى أكل السَّمك : وليسَ عندى منْ أرسلهُ لشرائه .

فأركَبَ الحمَّار عَليًّا فوقَ الحمار ، وسَارَ به حتَّى قارَب دكَّان زُريق السَّماك ، فشمَّ عَلى رَائحةَ السَّمك المقلى ، فقَالَ للحمَّار :

ما هَذه الرَّائحةُ التى حرَّكت الحنينَ ببطْنى ؟

قالَ :

هى رائحةُ سَمك زُريق يا سيدتى .

قالَ على :

أسرعْ وئتى منه بقطعَة سَمَك ساخنة حتَّى آكلها فى الحال ليَسكُن الحَنين .

فصَدعَ الحمَّار بالأمر . وقاد الحمار إلى الدكان مسرعًا ، ودخل إلى زُريق السَّمَّاك ، فقالَ لَه :

آتنى قطعةَ سمك ساخنة لأنَّ مَعى امرأةً حاملاً اشتاقتْ نفُسها إلى أكل السَّمك . فدخَلَ زريقٌ إلى الدكَّان ليوقدَ النَّارَ ، فرفعَ علَى عينه إلى باب الدكَّان ، فوجَدَ الكيس المنشُود معَلَّقًا به ، فمدَّ يدهُ يريدُ قطعَةً من الحبْل الذى تعلَّق به ، فصَلْصَلَت الأجراسُ المعلَّقَةُ بأعْلاه ، فانْتَبَه زُرَيق إلى ما يراد بكيسه ، فما هى إلاَّ ومضَةٌ حتَّى كانَ قرصُ الرَّصاص يمرُق فى الفضاء فى طريقه إلى رأس علَى . ولكنَّ عليًّا كانَ على انتباه لهذا الأمْر ، فتفاداهُ بحركة سريعَة ، ونزَلَ عنْ ظهر الحمار ، وانصرَفَ عائداً منْ حيثُ أتى ، وشتائمُ زُريق السَّماك تُشيَعهُ ، وسبَابهُ يلاحقُه .

وعاد علَى إلى إيوان أحمدَ الدنف خائبًا ، ولكنَّهُ لم ييئس ، ففى اليَوْم التَّالى قالَ للرجال :

ايتُونى بثياب سائس .

فلما أتوْهُ بها لبسها ، وأخَذَ وعاءً وخمسةَ دراهمَ ، وتوَجَّهَ إلى دُكَّان زُريق ، وقالَ لَهُ :

أعطنى بخمسة دراهمَ سمكًا ساخنًا .

فدخَلَ زُريقٌ ليوقدَ النَّارَ ، فمدَّ على يده إلى الكيس بخفَّة ، ولكنَّهُ ما كادَ يمسهُ حتَّى صلصلَت الجلاجل ، ورَنت الأجرَاس، وفى التَّو كانَ قُرصُ الرَّصاص يمرُقُ إلى رأسه ، ولكنَّ عليًّا كانَ يَقظًا فتَفَاداهُ . ثم أسرعَ بالانصرَاف ، فوقَعَ القرصُ فى وعاء به مرَقٌ ساخنٌ موضُوعٌ على دكة بباب الدكان ، فتصَاعَدَ منهُ رَشاشٌ أصَابَ قاضى المدينة الذى كانَ يمر حينئذ منْ أمام الدكان فى طريقه إلى أمر منْ أمُوره .

وغَضبَ القاضى لما أصَابهُ . وسخطَ عَلى زُريق ، واحتَدَّ عليْه فى القوْل ، واجتمعَ النَّاسُ يُطيبون خَاطرَ القاضى . ويُنْحُون باللائمة عَلى زُرَيق ، وهمْ يطْلبُون منْه أنْ يَعدلَ عَنْ تعليقه كيسهُ هذا بباب الدكان ممَّا يجْعَلُهُ هدفًا للطامعين ، ومَطمَعًا للسَّارقين ، وَسببًا لإثارة المشْكلات ، وجَلْب المشاكسَات فوَعَدهُمْ زُرَيق بذلك ، فانصرفَ القاضى .

وَلكنَّ زُرَيقًا لمْ يُنفذْ وَعَدهُ ، ولم يُنزلْ الكيسَ منْ مَعْلَقه بباب دكَّانه ، وَبهذا ظَلَّ هَدفًا لزيارة عَلى الذى أتاهُ هذه المرَّة

فى ثياب حاو يحمِلُ جرابًا مملوءًا بالثعابين ، وَوقَفَ بباب زُرَيق يَعْرِض عَلَيْه ثعابينهُ التى نَفَضَها فجأةً منْ جرابه ، فنزلَتْ عَلى باب الدكان ، وراحتْ تزْحَفُ إلى داخله ، وتنْسابُ بَيْنَ جَنباته هُنا وَهُناك .

وَفزِعَ زُرَيْق منْ رُؤْية هذه الثَّعَابين رَغْم ما كانَ عَلَيْه منْ جُرْأة ، ومَا كان يتسمُ به من شجاعة ؛ فَفَرَّ إلى دريئة بداخل الدكان ليحتمىَ بها ، وَيختْبِئَ وَرَاءها ؛ وكانتْ هذه هى الفُرْصَةُ التى عَملَ عَلىٌّ لأجْلها ، فجمعَ ثَعَابينهُ بسرعة ومدَّ يدهُ يُريدُ قَطْعَ الكيس منْ حَبْله الذى عُلقَ به بسلاح صَغير كانَ مَعه ، وهوَ يَحْسبُ أنَّ زُرَيْقًا لنْ يَفْطن فى هذه المرَّة إليْه ، ولكنْ خابَ فألُه ، فَقَدَ شَعَرَ زُرَيقٌ به وكانَ منهَ ما فعلَهُ مَعَ عَلى فى المرَّتين السَّابقَتَيْن وكانَ منْ عَلى كذلك مَا كانَ منْه قبْل ذلك ، فأفلَت دونَ أنْ يُصيبَه قرصُ الرَّصَاص الذى رَماهُ به زُرَيق ، وكانَ أنْ أصَابَ القرصُ أحدَ جُنود الخليفة وكانَ يمرُّ بالطَّريق فى هَذا الوقت .

وأمْسكَ الجندىُّ بتلابيب زُرَيق وهُو يصيحُ ويصخَب ، واجتَمَع النَّاسُ كعادتهم كُلَّما أصَابتْ أقرَاصُ زُريق وَاحداً منَ المارة ، يلُومون زُرَيقًا عَلى تَعْليقه هذا الكيسَ الذى يُسبب ما يُسببُ منْ أحْداث وَحَوادث .

وَبَعْدَ أخْذ وَرَد ، وَشَد وجَذب ، بينَ الجندى وزُريق ،

والنَّاسُ الذين اجتَمعُوا ينصرُون الجندى عَلى زُرَيق – تَعَهَّدَ زُرَيقٌ أن يرفع كيسهُ عَنْ باب الدكان ، ويكُفَّ عَنْ معاكسة النَّاس ومُشاغَبتهمْ به .

وعَادَ عَلى إلى إيوان أحمدَ الدنف يقْص عَلَيْهمْ هَذا الخبر الذى سَمعَ النَّاس يرددونه .

فقَالَ لَهُ أحمدُ الدنف :

لا عَليكَ ! ! إن كنتَ لم تنجَحْ فى أخذ الكيس فقد نجحتَ فى أنْ غَلبْتَ زُرَيقًا عَلى أمره ، وأثرتْ عَلَيْه النَّاسَ وجعَلتهمُ يُرغمُونهُ عَلى رفع الكيس منْ باب الدكانَ .

فقال عَلى :

مَهلاً !! مَهْلاً !! لن أتركَ زُريقًا ، وإن أخفى كيسهُ بينَ نُجوُم السَّماء ، وفى جَوْف الأرْض . وأؤكدُ لكَ أنى سأنجحَ فى إحْضَار الكيس فى هذه الليْلة بإذن الله .

فقالَ حسنٌ شُومان وهُو يضْحَكُ :

سَأبيتُ هُنا فى هذه الليْلة ، فإن لمْ تُحضر الكيسَ فلنْ أفتحَ لكَ البَابَ .

فقالَ عَلى :

لَقَدْ قَبلتُ هَذا الشَّرْطَ ، ورَضيتُ بهَذا الاتفاق ، وستفتَحُ لى البابَ عَلى مصْرَاعيه .

وخرجَ علىّ ليحُوم حولَ دكان زُرَيق يراقبُ ما يجْرى فيه ، ويلاحِظ ما سيكونُ منْ زُرَيق فى أمر الكيس .

ومرّ النّهارُ وأقبلَ الليلُ . وحانتْ ساعةُ إغلاق زُرَيق لدكانه ، وعلى يتربصُ لهُ يراقبُ ما يَفْعلُ ، ويتطلعُ إلى حركاته وسكناته . حتّى رآهُ يُنْزلُ الكيس ، ويضعه فى جيب داخل ملابسه يلاصقُ صَدرَهُ ، ثم يُغلقُ دكانهُ مُنْصرفًا إلى مَنْزله ؛ فتَبعَهُ علىٌّ دون أنْ يشْعرَ به . حتّى وصلَ زُرَيق إلى الحارَة التى بها منزلهُ ، فإذا بالمنزل الذى يجاورُ منْزلَ زُرَيق وقد أقيمَ به فرَحٌ كبيرٌ . وأضيئتْ الأنوارُ داخلَهُ وخارجَه ، والنّاس فيه يذهبون ويجيئُونَ ، ويدخُلونَ ويخرُجُون . فتوَقّفَ زُرَيقٌ بباب الفرَحَ . وهَمّ بالدخُول . ولكنّهُ عاد يحدثُ نفْسَهُ قائلاً :

الأصوبُ أنْ أذهبَ إلى دارى لترْك كيس النقُود بها ، ثمّ أعود لأتفرّجَ على المغنينَ والمغنيات ، والرّاقصين والرّاقصات ، وأنواع الألعاب المختلفة التى يقُومُ بها النّاسُ لإدخال السرور على المتفرجين ، ولأدفعَ النقوط إكرامًا لجيرانى أصْحاب الفرَح ، فإنّ منْ حق الجار على الجار حقّ مُشاركته فى أفراحه .

وانصرفَ زُرَيقٌ إلى داره ، أما على فقدْ وجدَ فى هذا الفرح الذى بمنزل جار زُرَيق أحسن فُرصَة هيّأتها لهُ الصُّدَف . فاندس بينَ النّاس الداخلين إلى بيْت الفرح ، ثم صَعدَ إلى سطْح الدار ،

وَمِنْ ثَمَّةَ انتَقَل إلى مَنْزل زُرَيْق بَعْدَ أنْ تَدلىَّ مِنْ فوق الجدار إليْه .

وتَسلَّلَ عَلى إلى أسْفَل البيْت فَسمع زوْجةَ زُرِيْق تَسْألُه :

مَا بالُك يا زُريْق يَبدُو عَلَيْكَ الهمُّ ، ويلُوحُ بمحياكَ الكَدر ؟ !

وسَمعَ زُرَيْقًا يُجيبُها :

لَقَدْ رُزئتُ بشخص تَقُولُ أختى دليلةُ إنَّ اسمَه عَلى الزئبَق المصْرى ، وَينْزلُ بإيوان أحمد الدنف . فهُوَ لاَ يَفْتَأ يأتى إلىَ كلَّ يوم مُتنكرًا بصُورة مختلفة عن الصُّوَرة التى سَبَقَتها وبُغيَتُهُ أخذُ كيس الدنانير الذى أعَلقُهُ بباب الدكَّان . فأقذفهُ أنا بقرْص الرَّصَاص ، فَيُفْلتُ منهُ بمهارَة . فيُصيبُ القُرصُ أحد المارينَ بالطريق ، فَيجْتمعُ عَلَىَّ النَّاسُ يلُومُونى عَلى تعْليق الكيس بباب الدكان ، وَيطَالُبُونَ إلىَّ أنْ أرْفَعَهُ فاضْطررْتُ اليومَ إلى إنزاله والمجىء به مَعى .

فقالتْ الزَّوْجة :

أوَ هَذا يُحزِنُكَ ويَغمكَ يا زُريق ؟ ! ألم تَعدنى أنْ تُقيم حَفْلاً وتَنْصبَ فَرحًا فى ختان ابننا عبد الله ، وتصرفَ مِنْ هذه الدنانير ؟ !

قالَ زُريق :

نَعَمْ ؛ قد وَعدتك بذلك عند ما نَعزِمُ عَلى ختانه إنْ شاء الله .

قالتْ :

إذنْ ، هَات الكيسَ أحْفَظُهُ لكَ حتَّى تستريحَ أنتَ قليلاً ، وتَنامَ بعضَ الوقتِ ، وبذلك تنهضُ مطمئنًا هَادئًا فتَتَوجهَ إلى فَرح جارنا حيثُ تشرحُ صَدركَ وتدفعُ نُقوطَك .

فقالَ زُرَيْقٌ لزَوْجته :

نعَمْ الرأى رأيك ! ! هَاك الكيسَ فاحفظيه ! !

وناوَلها زُرَيقٌ الكيسَ ، ثم ذهَبَ إلى فراشه ، فتمدد عليْه ونامَ كما أشارتْ عَلَيْه .

وَبذلكَ تهيَّأت لعلى فرصَةٌ طَيبةٌ لأخذ الكيس ، فقد راقبَ زَوْجَةَ زُرَيق بعْد أن نامَ زُريقٌ ، فوجَدها قَدْ وَضَعتْ كيسَ النقُود فى صُنْدوق ، ثم نهضَتْ فرقدتْ بجانب ابْنها . فتَسَلَّلَ هُوَ إلى حَيثُ الصُّندوق وفتَحهُ ، وأخذَ الكيسَ ، وأخفاهُ فى طيَّات ثيابه ، ثمَّ صَعدَ إلى سَطح الدار ليتسلَّلَ منهُ إلى بيت الفَرَح ليعود منهُ إلى حيثُ أتى .

وانْدسَّ عَلى بينَ المدعُوين للفَرَحَ ، فاسترعَى انتباهَهُ أصْواتُ المغنين ، وطَبلُ الطبَّالين ، وعَزْفُ العَازفين ، فوقَفَ يتفرجُ عليْهم ، ويمتعُ طرْفَهُ برؤْيتهم ، ويُشنفُ آذانَهُ بسَماعهم .

أمَّا زُريق فإنَّهُ ما كادتْ عينُهُ تغفُو بالنَّوم حتَّى هَبَّ مَذعُوراً

يُنادي زوْجتَه قائلاً لها :

انهضي يا أمَّ عبْد الله ، وانظُري كيسَ النقُود ، فإني رأيتُ في نوْمي كأنَّ غُرابًا قدْ خطفَهُ وطار !

فنهضَتْ زَوْجتُهُ لترى الكيس وهي تقُولُ لهُ :

اهْدأ يا زُريق ونمْ ، ما بالكَ اليومَ قلقًا ، متوتر الأعصاب هكَذا ! لقدْ حفظتُ الكيسَ في الصُّنْدوق ومَا منْ أحد معَنا . .

وتوقَّفتْ أمُّ عبد الله عن الكلام فجأةً ، ثم صرخَتْ صرْخةً كادَ ينْشَقُّ لهَا صدرُها ؛ ذلك أنَّها كانتْ قدْ فتحت الصُّنْدوقَ فلمْ تجدْ به الكيسَ الذي وَضعَتْهُ به منْذُ قليل !

وأسرَعَ زُريق إلى زَوْجته ليرَى ما حَلَّ بها . فإذا بها تبحثُ عن الكيس كالمجنونة ، وتُقلبُ الأشياء التي في الصُّندُوق فلاَ تجده ، ثم سَمع صوتَها تولْولُ وتنْدبُ قائلةً :

ضاعَ الكيسُ . . ! ! سُرِقَ الكيس . . . ! !

فقالَ زُريق :

مَا سرقَهُ إلاَّ علَي الزئبق ! !

فقالتْ لهُ زَوجتهُ :

أسرعْ ورَاءهُ واستخلصْ منْهُ الكيسَ ؛ ولا تَعُد إلاَّ به .

فقالَ زُريق :

لنْ أرجعَ إليْك إلا بالكيس إنْ شاءَ الله .

وأسرَع زُرَيق إلى مغادرة داره متوجهًا إلى دار جاره وهُوَ يَقُول لنَفْسه :

ما تسلقَ على دارنا إلا من بيْت الفَرَح .

ودخَلَ زُرَيْقٌ إلى دار جَاره . واندسَّ فى جمع الناس يتفرسُ فى الحاضرين ، فوقعتْ عَينُهُ عَلى علىّ وهُوَ واقفٌ يتَفرجُ مَعَ المتفرّجين ، فعَرفَهُ منْ وصْف أخته دليلة لهُ ، وأيقنَ أنّهُ هُو الذى سَطا على داره بسبب وُجُوده فى الفَرَح ، وأخَذَ الكيسَ .

أسرعَ زُرَيقٌ إلى مُغادرة دار جَاره ، وتوَجّهَ إلى إيوان أحمد الدنف . وطافَ حوله حتّى وجَدَ مكانًا فيه سهْلَ الارتقاء فارْتَقَاهُ ، ومنْ ثمةَ نَزَلَ إلى أسفل الإيوان ، فوجَدَ الجميعَ نيامًا بقاعاتهم ، فسارَ إلى باب الدار ، وكَمنَ وراءهُ ينتظرُ عودة عَلى .

وما لبث على أنْ حضرَ وقرَعَ البابَ قَرعتَهُ المعْهُودة . فأجابه زُريْقٌ من وراء البَاب بصَوْت خفيض :

مَن بالباب ؟

وكانَ علىٌّ يظُنّ أن الذى ينتظرُهُ وراء الباب هُوَ حسن شُومان ليرَى : أ أتى بالكيس أم لا كما تواعَدا عَلى ذلك ! ! ولذلكَ أجابَ :

أنا على المصرى ، وقدْ أحضرتُ الكيسَ معى .

فقال زُرَيق :

أحقًّا ما تَقُول ؟ إنى لا أصَدقُ ذلك .

قالَ عَلِى :

افتحْ يا حسن ، فهذا الكيسُ فى يدى .

قالَ زُرِيق :

لا أفتَحُ إلاّ بعدَ أنْ أراهُ وأمسكهُ بيدى ، أدخلْهُ إلىّ من الطّاقَة .

فقالَ عَلِى :

لاَ بأسَ بذلك .

وكانَ بالباب كُوةٌ صَغيرةٌ ، فأخرجَ عَلِىّ الكيسَ من بين طيّات ثيابه وأدخَلَهُ منها . فتَلقّاه زُرَيْق من النّاحية الأخرَى ، ثم أسرعَ إلى أعْلى الإيوان ليتدلىّ منهُ إلى الطريق من حيثُ تسلّق فى أوّل الأمْر .

وانتَظَر عَلِىّ أنْ يُفتحَ البابَ ، ولكنْ دونَ جَدوى ، فظنّ أنّ حَسن شُومان يُداعبه ، فأعاد قَرعَ الباب ونادى :

افتح يا حَسَن شُومان ، وكفاكَ دُعابَة .

فلم يُجبْه مجيبٌ . فتغَيّظَ عَلى . وقرعَ البابَ بشدة نبهَتْ مَنْ بالإيوان من الرجال . فهبّوا جميعًا يَقُولُون :

هَذه طرقَةُ عَلِى الزئبق .

وأسرعَ النّقيبُ إلى فتح البَاب . فدخَلَ عَلىٌّ الزئبَق ، فما إنْ رآهُ حسنُ شُومان حتّى بادرُه بقوْله :

هـلْ أحضَرتَ الكيسَ يا علي ؟

فنظَر علَىٌّ إلى حسن شُومان نظرةَ عتاب وقالَ :

كفاكَ مِزاحًا يا حَسن شومان . . . ألمْ أعطكَ الكيسَ من الطَّاقة ، ثم تركتُني واقفًا بالباب ؟

قالَ حسن شومان بدهشة :

أىُّ كيس ؟ ! ! وأىُّ طاقة ؟ ! ! أنا لمْ أُفقْ منْ نوْمى إلاَّ فى هذه اللحظة .

فقالَ علىٌّ بدهشة زادتْ على دهشة حَسَن شُومان :

أحقًّا أنك لم تتلقَّفْ منى الكيس من كوة البَاب ؟ !

فأقسم حَسن شُومان لعلى أنهُ لم يتلقَّف الكيسَ ، ولم يستيقظ من نوْمه إلاَّ فى هذه اللحظة ؛ فقالَ على :

إذَنْ لقدْ عملَها علىٌّ زُرَيق ، وكانَ هُو الذى يكمنُ لى وراء البَاب .

وأسرعَ علَى بالخُروج متوجهًا منْ جديد إلى دار الفرح بعدَ أنْ أخذ معَهُ إسْفنجةً مُشبعَةً بمحلُول البنج وأخرى مُضَادةً لمَا ، ومَا إن أهَلَّ علَىّ علَى بيت الفرح حتَّى سَمعَ مُهرِّجَ المغنين وهُو يُنادى باسم زُرَيق إعلانًا لما دفعَ من نُقُوط .

فقالَ علَىٌّ لنفسه :

طابتْ لكَ يا علىُّ الفرصَةُ ، وتهيأ لكَ الأمْر .

وأسرَعَ إلى دار زُريق فوجَد زوْجتَه نائمةً بجانب طفلها عبد الله ، فقرَّبَ من أنفها إسْفنجة البنج لتظَلَّ نائمةً تحتَ تأثيره ، ثم أخذ وشاحَها ، وتلَفَّع به ، وأتى إلى الطفل ففعَل معَهُ بإسْفنجة البنج مَا فعَل بأمه ، ثمَّ حمَلَهُ ، وبحَثَ عنْ شيء يَضَعُهُ فيه ، فوجدَ سلَّة بها كعْكٌ منْ كعْك العيد ، فوضعَها بجانبه ووَضَعَ عبدَ الله فيها ، ثم جلَس يَنْتَظرُ عودة زُرَيق .

ومَا هيَ إلاَّ ساعَة أو بعض ساعَة حتى أقبلَ زُرَيق إلى داره بعد أن قامَ بما علَيْه من نقوط جاره ، ثم قَرعَ الباب .

فردَّ علَى بصوْت ناعم مقلداً صوتَ زوجَة زُريق :

أ أنتَ أبو عبْد الله ؟

أجَابَ زُرَيق :

نعمْ ، فافتحى .

قال علَى :

لقد أقسمت ما أفتَحُ لكَ البَابَ إلاَّ بعدَ أنْ تحضر لى الكيس وأمسكُه بيدى .

فقالَ زُرِيق :

أدلى السَّلةَ وأنا أضَعُه لك فيها .

فنهضَ علَى إلى النَّافذة فوجَدَ بجوارها سلَةً مربوطًا بها حبل كانتْ زوجةُ زُريق تستخدمها فى أخذ حَاجَاتها فيها منَ البائعين ، فأدلاهَا

فوضَع زُريقٌ بها الكيس ، فرفعَها علَى إليه ، وأخَذ الكيس منها ، ثم حَمَلَ سَلّةَ الكعْك وطَفَل زُريق بها ، وغادر الدار بعد أن شَمِمَ زَوجةَ زُريق الإسفنجة المشْبعةَ بمحْاول ضد البنج .

وظَلَّ زُريقٌ بالباب ينتظرُ أن تفتح لهُ زوَجتُه ، ولما لم تفعل قرَعَ الباب بشدة وغَضَب . فهبت زوجتُه من نومها قائلة :

أو قدْ حضرت يا أبا عبد الله ؟ ! ! أجئت معكَ بالكيس ؟ ! !

فصاحَ علَيها زُريق :

ما بالك يا امرأة ؟!! ألم أضع لك الكيسَ فى السَّلّة التى أدليتها ؟ !

قالَتْ :

أنا ما أدليتُ سلّةً . ولا أخذتُ كيساً . . !

فأدركَ زُريْق ما حصَل ، فقالَ لامْرأته :

لقدْ غلبَنى الشّاطرُ علَى . وصنعَ ما صنعْتُ معَه . افتَحى حتّى أرَى ما حَلّ بالدار .

ففَتَحتْ زوجَةُ زُريْق البابَ لزَوْجها ، ثمَّ أخَذا يتَفَقّدان الدار ، وحينئذ اكتَشَفَا فَقْدَ وَلَدهما عبد الله فصرَخَا :

وَاوَلَداه . . ! !

وصَاحَتْ أمُّ عبد الله وَوَلْوَلَتْ . وأخَذتْ تَدُقُّ صَدرَها بيَديْها . وَهى تقُول لزَوْجها :

مَا أخَذَ وَلَدى إلاَّ الرجلُ الذى يعملُ معَكَ المقَالبَ ،

ومَا هَذا إلاَّ بسَبَبكَ وبسبب تَعْليقكَ الكيس بباب الدكَّان . . هَيَّا بنَا إلى الوزير فمَا أشْكُوه إلا إليْه ، ولاَ أعرفُ ولَدى إلا منهُ . .

فَقَالَ لهَا زُريق :

هَذى رَوْعَك يا امْرأة ، وخَففى عَنْك ، فلَنْ أعُودَ لك إلاَّ به .

وأخَذَ زُرَيْق مِنديلاً كَبيرًا أبيضَ ، وربَطَهُ فى عنُقه دلاَلَةً عَلى أنَّهُ يطلبُ السَّلامَ والأمَان . ثُمَّ سَارَ مُتَوجهًا إلى إيوان أحمد الدنَف . وقَرعَ البَاب .

فَقَال أحمدُ الدَّنَف :

هَا هوذا زُرَيْق قَدْ جَاء فى طَلَب وَلده الذى جَاء به عَلىّ .

وفَتَحَ البابَ فدخَلَ زُريق يقُول :

يا كَبيرَ الإيوان ! إنى جِئتُ طَالبًا وَسَاطتَكَ بيْنى وبيْنَ أحَد صبْيانك عَلى الزئبَق المصْرى الذى لمْ يَكْتَف بأخذ كيس دنانيرى ، فَأتْبَعَهُ بخَطْف وَلَدى .

فقَالَ أحمدَ الدنَف :

أوَ لَمْ تكُن تُعَلقُ الكيسَ عَلى باب دُكَّانكَ حَلالاً لمنْ يَسْتَطيعُ أنْ يأخذهُ ؟ ! فما بالُكَ إذنْ لمْ تتركْهُ لعَلى وقَدْ اسْتَطَاعَ أنْ يستولى علَيْه ؟ !

قالَ زُرَيق :
لقَدْ وَهَبتُ لهُ الكيسَ ، فَلْيأتنى بولَدى .
فقَالَ أحمدُ الدنف لعَلى :
هَات الولَد يا عَلى لأبيه ، وَخُذ الكيسَ حَلالاً لكَ .
فَقَامَ عَلى وأحضرَ الطفْلَ وسَلَّمهُ لأبيه ، فقالَ أحمدُ الدنَف لزُرَيْق :
اطمَأنَنْتَ عَلى وَلَدِكَ ، وقَرَّتْ عَيْنُك ، وطابتْ نَفسُك يا زُرَيْق ؟ ! !.
أجَابَ زُرَيْق :
نعَمْ ، ما دمْتُ قَدْ أخَذتُ وَلَدى .
قالَ أحمدُ الدنَف :
وَكيسُكَ مَرْدودٌ إليْكَ مَهرًا لزَيْنَبَ ابنة أخْتك دليلة فإنَّا خَطَبْنَاهَا منْكَ لعَلى .
قالَ زُرَيق :
وأنا قَبلتُ إنْ كانَ عَلى يَقْدرُ عَلى بَقيَّة مَهْرها ؛ فَقَدْ أقسَمت زَيْنَبُ ألاَّ تَتزَوَّجَ إلاَّ بمَنْ يأتيهَا بحُلَّة قمرَ بنت عُذرَةَ اليَهُوديّ .
فقالَ عَلى :
سَوْفَ آتيها بها .

فانْصَرفَ زُرَيْق ومَعَهُ الكيسُ والوَلَدُ .

أمَّا أحْمدُ الدنَف وحسَن شُومان فَقَدْ نَظَرا إلى علَى مُسْتَنْكرين مَا قالَ . وما تَعَهّدَ بِه . وقالاَ لَهُ :

أحَسبتَ يَا علَى أنّ عُذرةَ اليَهُودىّ مثلُ زُرَيق أوْ أمثاله ممن تَقَابَلْتَ مَعَهمْ منْ أصْحَاب الألاعيب وَحَبْك المكايد ، وتدبير المقَالب . . ؟

فقالَ علَى مُتَسَائلاً :

وَمَنْ يكُون عذرة اليَهُودى إذن ؟

قالاَ :

هُوَ صَائغٌ يَهُودى مَاكرٌ خَبيثٌ ساحر ، يَسْتَخْدمُ السحر فى أعْماله ، وَيُسَخرُ الجنّ فى أفْعَاله ، ممَّا لَيْسَ لكَ بخَوافيه طَاقَةٌ ، وَلاَ بأسرَاره مَعْرِفَة .

سَأل علَى :

وأيْنَ دكّانُ هَذا اليَهُودى ؟ وأيْنَ يُقيمُ ؟ وما هى حُلَّة ابْنَته ؟

قالا :

دكّانهُ بسُوق الصياغَة ، ويُقيمُ فى قصْر خَارج المدينة ، جُدرَانُهُ حَجرٌ منَ الذهَب وحجرٌ من الفضَّة ، وهَذا القَصْرُ يَظْهَرُ للنَّاس ما دامَ هُو مُقيمٌ فيه ، فإذا غَادرُه اختَفى عن الناس ،

وذلكَ بما لقدرَة صَاحبه عَلى السحْر ، وتسخير الجان ، أمّا حُلّة ابنته فهى حُلّة يُقَال إنّهُ قدْ أحضرها منْ أحد الكُنُوز ، وهَذه الحُلّةُ خيُوطها منْ سُلوك الذهب المرَصّع بالدرّ والجَوهر .

فقالَ عَلى :

قسمًا بالله لأسْعَيَنّ وراء هَذه الحُلّة حتّى أظْفَرَ بها ، ولأجعلنّها ثَوْبًا لزَينب ترْتديه يوْم زفَافها .

١١

وَعَلى هَذا العَزْم غادرَ عَلى الزئبق أحْمد الدنَف وَعصَابته ، وتوَجّهَ إلى دكّان عُذرَة الصّائغ اليَهُودىّ ووَقَفَ يُرَاقبُهُ عَنْ بُعْد ، فَرآهُ قابعًا فى دكّانه . وأمامهُ ميزَانٌ يزنُ فيه تارَةً ذهَبًا ، وتارَةً فضّةً . وأمامَهُ مَوَاقدُ يصْهَرُ فيها ما يوَدُّ صَهْرَهُ من هذين المعْدنيْن ليحولهُما إلى سبائك ، أوْ ليَصْنَعهما حُليًّا منْ أسَاورَ وقلائد ودمالج .

وظَلّ عَلى فى موْقفه هذا منْ عُذرةَ اليَهُودى ، حتّى رَآهُ قدْ استْعدّ للانصراف ، ووَضَعَ ذهَبَهُ وَفضتَهُ فى كيسيْن ، وَضَعَهُما فى خُرج عَلّقَهُ فوقَ ظَهْر بَغْلة كانتْ تقفْ بجوار الدكّان ؛ ثمّ أغلَق الدكّانَ ، واعتَلى ظهرَ البَغْلة ، وانصرفَ ؛

فتبعَهُ علِى دونَ أن يَشْعُرَ به .

وسارَ علِى وَراء عُذرَةَ الصَّائغ حتى رآهُ قد غادرَ المدينَةَ ، وتوَغّل فى الصَّحْراء ، وظلَّ سائرًا بيْنَ حصْباء الصَّحْراء ورمالها ، وعلِىٌّ علَى مَبْعَدة منْهُ ، وعيناهُ لا تُفارقانه ، حتَّى رآهُ قَدْ نزَل عَنْ ظَهر البَغْلَة فى مكان قَفْر ليْسَ به نأمَةٌ تدبُّ فيها الحياةُ ، ثمَّ تربَّعَ فوقَ الأرض ، وأخرَجَ شيئًا منْ جرابه صَارَ يعزمُ علَيْه ويتَمتمُ ، فإذا بعلى يرى قصْرًا شامخًا عاليًا قدْ ظهرَ أمام مجْلس اليَهُودى ، لهُ درجٌ منْ مَرْمَر ورُخامْ ، قام اليَهُودىُّ وركبَ فوْقَ ظهْر البَغْلَة واعْتلاهُ .

ولمْ يحجمْ علِى عَنْ أنْ يتْبَعَ عُذرَةَ إلى حيثُ صَعدَ ، فارتَقَى منْ خلفَه السلمَ فى حرْص وحذر ، فإذا باليَهُودى وقَدْ نزَلَ ثانيةً عَنْ ظَهر البَغْلَة ، وإذا البَغْلَةُ وقَد اختَفَتْ فى الحال !

وعَجبَ علِىٌّ منْ أمر هذه البَغلَة التى اختَفتْ وَهىَ واقفَةٌ فى مكانها ، وكأنَّ الأرضَ انشقت فابتلعتها أوْ خُسفَتْ بها ، ولَكنَّهُ عادَ فتَذكَّر ما قالهُ لَهُ أصحابهُ عنْ سحْر اليَهُودى ، وقُدرَته على تسخير الجن ، ومَا كانَ شأنُ القصر الذى أقيمَ منَ الهبَاء إلاَّ أعجزَ منْ أمْر البَغلَة التى اختفَتْ وامَّحتْ فجأةً منْ أمام عَيْنَيْه .

وركَّز علِى اهتمامَهُ فى الاختفاء ، وَفى مُراقبَة اليَهُودىّ ، ينظُر ما يَفعَلُ وما يأتى من أعمال ؛ فرآهُ قَدْ أحضَر قصَبَةً منْ ذهَب ،

نصبَها كالحامل . وأتى بصينيَّة من ذهَب ذات سلاسل ذهَبيَّة أيضًا فعلَّقَها من السلاسل فى القصبة ، وأحضرَ حُلَّةً منْ خيوط الذهب المرصَّع بمختلف الجَواهر ، ووَضَعها فى الصينية ، ثمَّ سارَ إلى نوافذ القصر جميعهَا ففتَحها . وجَلَسَ بالقرْب من الصينية التى علَّقها فى القصبَة ووَضعَ فيها الحُلَّة . وصَاحَ بصَوْت جَهْوَرى رنَّ صَداهُ فى أرجاء القصْر الخالى يقُول :

يا شُبَّانَ مصر . . ! ويا فتيانَ العراق . . . !! ويا مهَرَةَ العجَم . . ! ! ويا مَفخرَةَ العَرب . . ! ! مَنْ أتى منكمُ إلىَّ ، واستَطَاعَ أن يأخذَ هذه الحُلَّة ـ فَهى لهُ . . ! ! من غَلَبتْ حيلتُه حيلَتى ، وفاقَ سحرُهُ سحْرى ، واستَخلَصَ الحُلَّةَ منْ يدى ـ فهى لهُ . . ! ! هَا هَا . . هَا هَا . . ! !

وارتجَّ القصْرُ منْ جَديد بقهقَهة عَذرَة اليَهُودى . وتردَدَ فى أرجَائه صَدى أصْوات هزْئه وسخريته وقَهقَهته . .

وعَجبَ عَلى منْ غَرَابة أطوَار هذا الرَّجُل الذى يُنادى عَلى النَّاس فى مكان يَعرفُ أنَّهُ خال منْ كُل إنسان وأنَّهُ لنْ يسمَعَ بندائه أحد . ولنْ يُجيبهُ مجيب . ولَنْ يرُدَّ عَلَيْه رَاد . . وما شكَّ عَلى أنَّ هذه الحُلَّةَ التى يُنادى عَلَيْها عَذرَةُ ما هى إلاَّ حُلَّة ابنته قَمَر التى أتى هُوَ ينشدها ويَسعى للحُصُول عَلَيْها .

وانتَظَر عَلى ما سيكُونُ من اليَهُودىَ ، فرآهُ يُشيرُ بيَديه

إشارات غَريبةً ، ويُتمتِمُ بأصْوَات عَجيبة ؛ وَإذا بمائدة من الطعام الشَّهي قد ظهرَتْ أمامَهُ فجأة . فجلسَ إليها يأكلُ حتَّى اكتفى .

وعَاودَ اليَهُودىُّ هذه الإشارات ، وتَلكَ التَّمتمات والهمْهمات ، فاختَفَتْ مائدةُ الطَّعام ، وظهرَت مَكانها مائدةٌ حافلَةٌ بأنواع الشَّرَاب ؛ وجلَسَ اليَهُودى إليْها يشرَبُ وَيشرَبُ حتَّى ظنَّ عَلى أنَّهُ لا بُدَّ قدْ أسكَرَهُ الشَّراب ، ولَعبتْ برأسه الخمر ، فقالَ لنفْسه :

هذه فُرْصَتكَ يا عَلى فلا تُفْلتها منْ يدك .

وأخرجَ منْ بينَ ثيابه قضيبًا من الحديد ، واقتربَ من اليَهُودى بحرْص وَحذر ، حتى صارَ منهُ عَلى بُعْد خطَوات ، ورَفعَ يدهُ بالقَضيب ليهْوىَ به عَلى رَأسه ، ليُغيبهْ عنْ وَعْيه ، حتَّى يستَطيعَ أنْ يأخذَ الحلْقَةَ التى يَنْشدها ؛ ولكنَّ يدهُ ظلَّتْ مُعلَّقةً فى الهَواء بالقَضيب لا تَقْوَى عَلى الهبُوط . . . ! وَوصلَتْ إلى أسماع عَلى أصْوَاتٌ هَمْهمة وَدمدمَة وتمتَمَة وزَمْجَرة تَصْدرُ من اليَهُودى . فرفع يدهُ الأخرى وأخذَ قَضيبَ الحديد من يده المرْفُوعة وَهمَّ أنْ ينقَضَّ به عَلى رَأس اليَهُودى وَلكنَّ يدهُ الأخرى أيضًا لمْ تطاوعْهُ . وظلَّتْ مرفُوعةً فى الفضاء كأختها . . !

وَبُهتَ عَلى لما جرَى . . ! وَعجبَ لما صَارَتْ إليْه حالتُه ، وأيقَنَ أنهُ سيقَعُ فى يد اليَهُودى فَريسةً سهلةً إنْ لمْ يُسارعْ بعمل يُباغتُ به اليَهُودىَّ دفاعًا عنْ نَفْسه . فأرَاد أنْ ينقَضَّ عَليْه

وَيقْذفهُ بجسمه كله ، ويدوسهُ ويركلهُ بقَدميه ؛ ورَفعَ عَلى قدمَهُ اليُمنى ليخْطوَ خَطوَتهُ الأولى ولَكنْ لم تستْطعْ قدمهُ النزولَ إلى الأرْض ، وتعلقتْ هيَ أيضًا فى الهَواء ، وكأنها قَدْ شُدتْ وعُلِّقتْ عَليْه كأنَّها خُشبَتْ . . .

والتَفتَ اليَهُودىُّ إلى عَلى مُقهْقهًا بصَوْت دوى لهُ أرجاءُ المكانَ .

وقامَ اليَهُودىُّ إلى تخت من الرَّمْل جعَلَ ينقُشُ وَيخَططُ فيه بإصبَعه زَمنًا ، ثمَّ عَادَ إلى عَلى الذى كانَ يقفُ عَلى قدم واحدة ، فأشار إليه بيده وهُوَ يهمْهمُ ويُتمتم ، فارتَختْ ذرَاعا عَلى إلى جانبيْه ، ونزلتْ قدمهُ إلى الأرْض ، وعادَ كما كانَ أوَّلاً ، وقالَ لهُ اليَهُودىُّ :

تقدم . . . وأخبرنى : مَنْ أنت ؟ وما شأنُك ؟

فقالَ عَلى :

أنا عَلى الزئبَق المصْرى منْ تلاميذ أحْمد الدنَف ، قدْ خطبت زَيْنَب بنْتَ دليلة المحتالة واشترطَتْ عَلىَّ مهْرًا لها أنْ أجيئها بحُلَّة ابنتكَ قَمر .

فقالَ اليَهُودى :

لا تُجهد نَفْسَك يا عَلىُّ فى هذا السَّبيل ، فما اسْتطاع غَيْرُك منْ قَبْلكَ الحصُولَ عَليْها رغْم ما أتوْا منْ حيَل وأعْمال ، فانصرفْ

إلى حَال سبيلك قبلَ أنْ ينَالكَ غضَبى ، فلوْلا أنى رأيتُ فى تخْت الرَّمْل وأنا أضربُهُ أنَّ سَعَدكَ يغْلبُ سَعْدى ، وأنَّ نجمَكَ يَعلُو نجمى — لمَا أبقيتُ عَليْكَ ساعَةً من الزَّمان .

وسُرَّ عَلى لما قالهُ اليَهُودى عَمَّا رَأى فى تَخْت الرَّمْل ، وانتَعشت رُوحُه وقَويتْ لكونه سَيَغْلبُ اليَهُودىَّ ، وسَيَعْلوُ عَلَيْه ؛ فقالَ لهُ :

لا بُدَّ أنْ آخُذَ الُحلَّةَ ، ولنْ أنصرفَ بدونها .

فقَالَ اليَهُودى :

ما دُمتَ بهذا العنَاد ، فما فى وسعىإلاَّ أنْ أُصَيرَكَ إلى ماصَيَّرتُ إليْه غيرَكَ منْ قبْل .

وتَنَاوَلَ اليَهُودىُّ طَاساً ملأهُ بالماء ، وصَارَ يعزمُ ويهمْهمُ ويدمدمُ عليه ، ثمَّ رشه عَلى علىّ وهُوَ يَقُول :

اخرُج من صُورَتكَ البشريَّة إلى صُورَة حمار .

وَفى الحال صَارَ المكانُ الذى كانَ يقفُ فيه على منذُ لحظة ، يَقفُ به حمارٌ ، ذو حَوافرَ وآذان طوال وصَوْت مُنكر ، ينْهَقُ مثلَ بَقيَّة الحمير .

وخَطَّ اليَهُودىُّ بيده دائرةً حولَ الحمار ، فإذا هذه الدائرةُ سُورٌ قدْ أحاطَ به ليمْنعَه من الهَرَب .

وجَلَسَ اليَهُودى منْ جديد إلى مائدة الشَّرَاب يَعُبُّ منهُ

آمنًا مُطمئنًّا حتَّى انصرَمَ الليلُ وانبلَجَ النَّهارُ .

وقامَ اليَهُودىُّ إلى الصينية التى بها الُحلَّةُ التى صَارَ عَلَىّ إلى ما صَارَ إليه منْ أجْلها ، فرفعَهَا هىَ والقَصَبةَ ، وأحضرَ جرابه الذى به ذهَبُهُ وفضّتُهُ ، فوضَعَهَا فَوْقَ ظَهْر على الذى صَارَ حماراً . ثمَّ رَكبَهُ هُوَ أيضًا وهُو يقُول لهُ :

سنريحُ البَغْلةَ اليومَ ونركَبُكَ بدلاً منها ، فسرْ بنا إلى دكّاننا الذى تَعرفُهُ حقَّ المعْرفة .

وهمزَ اليَهُودىُّ عَليًّا فنَزلَ به سُلَّمَ القَصْر ، وما كادَ يسيرُ به بضْعَ خطوات حتَّى اختَفى القصرُ منْ مكانه وكأنَّهُ ما كانَ .

وسَارَ الحمارُ الذى كانَ بالأمس إنسانًا مُستوى الخلقَة براكبه عذْرةَ اليَهُودى ، فاجتازَ به الصَّحراء إلى المدينة ، ودخَل به إلى أسواقها وطرُقاتها حتى أوْصَلَهُ إلى دكَّانه .

ونَزلَ عذرةُ عن ظهر الحمار ، وربَطَهُ فى حلْقة من الحديد بجوار باب الدكان ، ثمَّ دخَلَ هُو إلى دكَّانه فأفرَغَ كيسَ الفضَّة والذهب ، وأخذ يمارسُ عملَهُ الذى كانَ يمارسهُ بالأمس .

وظلَّ علىٌّ فى مربَطه ينظرُ إلى ما يجْرى بألم وحسرَة ، ويسمَعُ ما يقالُ وَيفْهمُهُ ، ولكنَّهُ لاَ يسْتطيعُ النطقَ إلاَّ بصَوت الحمير ، فإذا أرَاد أنْ ينْطقَ نهقَ ، وإذا غَضبَ رَفس ، وإذا استمع طرْطَقَ أذنيْه ؛ وهكذا كانَ يفْعَلُ كلَّ ما تفْعلُه الحميرُ ، فلا فرقَ بينْهُ

وبينَهَا إلاّ أنّ عقلَهُ عقْلُ إنسان .

وبعد قليل أتى إلى اليَهُودىّ رَجُلٌ يحملُ سوارًا ، وقدّمَهُ ليشتريهُ منهُ وَهُو يَقُول :

يا معلّم عُذرَةً ؛ اشتر منى هذا السوار بثمن غال ، ولا تبخسنى حقى فهذا السوارُ ملكٌ لزَوْجتى ، وما أجبرنى عَلى بَيْعه إلاّ أنى عاطلٌ لا تجارَةَ لى ، ولا عملَ أرزقُ منْه ، وأودُّ أنْ أشترى من ثمنه حمارًا أشتغلُ عَلَيْه سقّاء .

فقالَ اليَهُودى :

أتشْترى منى حمارى هذا ؟

فنظَرَ الرَّجُلُ إلى علي فوَجدَهُ حمارًا نظيفَ الجلْد ، زاهى اللون ، وأعْجبَهُ مَنظَرُهُ ، فقالَ :

لا بأسَ يا مُعلم عُذرَة ؛ بعْنى إيَّاهُ . . . !

واتفَق الرَّجُلان عَلى ثمن الحمار ، فأخذه اليَهُودىُّ من ثمن السوار ، ثم نقَد الرَّجُلَ باقى الثَّمن .

وأصبحَ عَلى ملكًا لهذا المالك الجديد الذى اشتراه ليضَعَ عَليْه لوْحًا عَريضًا من الخشب . ومَنْ فوقه يَضَعُ قرَب الماء التى يَقُومُ بتوزيع مائها عَلى النَّاس.

وحَدَّثَ عَلى نفْسهُ :

ياوَيلَتى ممَّا سَيحدثُ لى ! ! أ أذهبُ كلّ يوم إلى النَّهر لجلب

الماء ، وأظَل طيلَةَ يومى أطُوفُ به الأسواقَ والطرُقات ، والأزقة والحَارَات ؟! ! إنَّ هَذا لا قُدرَةَ لى عَلَيْه ولا احتمال .

وأتى الرَّجلُ بعَلى إلى داره ، وقالَ لزَوْجَته :

هَا قدْ اشتريتُ حمارًا مليحًا فاعْلفيه بالعَليق حتَّى أذهبَ لشراء ما يَلزمُهُ منْ بَرْدعَة ، وأبتاع ما سَأحملُهُ عَلَيْه من القرَب .

فأحْضَرت المرأة فُولاً وشعيرًا وضَعتهما فى مخلاة ، وتقَدمتْ من الحمار لتعلقَ لهُ المخْلاةَ فى رقبته ليأكلَ منها ؛ فما كانَ منهُ إلاَّ أنْ ضرَبهَا برأسه ضربَةً قويةً جعلَتْهَا تسقطُ على الأرْض وَهى تصْرُخُ وتُوَلولُ وتسْتَغيثُ .

واجتمعَ الجيرانُ عَلى صُرَاخ المرأة ، فعرفتْهمُ بما كانَ من الحمَار ، فأبعَدوهُ عَنْها بعَد أنْ ضرَبُوهُ ضربًا شديداً مُبرحًا .

وما لبثَ زوجُ المرأة أنْ جَاءَ فأخْبرتْهُ بما فَعلَ الحمَارُ معهَا وقالتْ :

لَقدْ أوشَكَ هذا الحمارُ أنْ يَقْتلنى ، فلا بُدَّ من رَده إلى صَاحبه .

فسَحبَ الرجلُ الحمارَ ، وعادَ إلى عُذرةَ الصَّائغ ، وقالَ :

أنا لا أريدُ هذا الحمار !! لقد ضربَ زوجَتى وكادَ أنْ يقتُلها ، فخُذه ورُدَّ لى مَالى .

فردَّ عذرةُ للرجُل نقودهُ ، فأخَذهَا وانصرفَ .

أمَّا عذرةُ فقد التفتَ إلى على وقالَ لَهُ :

أتستعملُ أساليبَ اللؤْم والمكْر يا مشْئومَ الوَجْه ؟ ! سوفَ أريكَ ما أنا فاعلٌ بكَ إذا لمْ ترجعْ عن غيك

ولمَّا حَانَ وقتَ انصراف اليَهودى منْ دُكانه ، رَكبَ الحمارَ ، وفعلَ ما فعَلَ بالأمس ؛ فلمَّا صَارَ بالقصر أحضَر طاساً مملوءاً بالماء ، وتلا التَّمائمَ والرُّقى ، ثمَّ رشَّ عَليًّا ، فخرجَ من صُورة الحمَار إلى صُورَته الأولى إنساناً مُستوى الخلْقَة ، قويًّا وسيماً ؛ فقالَ لهُ اليَهودى :

استَمعْ لنُصْحى يا عَلىّ ، وابتعدْ عَنْ شرى ، وانصَرفْ عن طَلَب الحُلَّة التى جئتَ تَنْشُدها ، وارْجعْ عنْ زَوَاجكَ منْ زَيْنَبَ .

قالَ عَلىّ بإصرار :

لاَ ياعُذْرَة ؛ بلْ لا بُدَّ لى أنْ أتزوَّجَ منْ زَيْنَب ، ولاَ بُدَّ أنْ أمْهرَها بحُلَّة ابْنتك .

قالَ اليَهُودىّ :

ما دُمتَ لا تُريدُ أنْ تنزلَ عَنْ رَأيكَ ، فاستَعد لما يجْرى عَلَيْك .

وَرَشَّ اليَهُودىُّ عَليًّا ثانيةً بالماء بَعدَ أنْ تلا عزَائمهُ ورقاهُ ،

وهُوَ يَقُولُ لهُ :

اخرُجْ منْ هَيْئتكَ هذه إلى هيئة دبّ .

وَفى الحال صَارَ علىّ دُبًّا غَليظَ الجسم ، طَويلاً ضَخْمًا ؛ فَشَدهُ اليَهُودىُّ إلى وَتد بالأرْض ؛ وجَلَسَ يأكُلُ ويشرَبُ ، ويُلقى إلى الدب بنُفاية الطعام ، ويَصُبُّ فوقَ رأسه ما يتبقّى بكأسه من الشرَاب .

وانقَضَتْ الليْلَةُ ، وفى الصَّباح صَحبَ اليَهُودى عَليًّا إلى الدكان ورَبَطَهُ ببابه بَعْدَ أنْ كَمَّمَ فمَه ودخَلَ هُو لمزاولَة أعماله كالمعْتاد .

ومَرَّ رجُلُ بالدكَّان فرأى الدبَّ مربُوطًا ببابه ، فقَالَ لنفسه :

هَذا هُوَ ما كُنْتُ أبحثُ عَنْه منْذُ زَمن طويل .

فتَقَدمَ منْ عُذرَةَ اليَهُودى وقالَ لهُ :

أتبيعُنى هذا الدُّب يا مُعَلمُ عُذرَة ، فإنَّ امرأتى مريضةٌ ، وقد وُصفَ لها لحمُ الدب والتَّدهن بشَحْمه . وأكَّد النَّاسُ أنها لا تبرأ منْ مَرَضها إلاَّ بهَذا .

فَفَرحَ اليَهُودى بذلك ، ووَجَدها فُرصَةً للخلاص من عَلى ، فقَالَ للرَّجُل :

خُذهُ منى هديةً لكَ ولامرأتكَ دونَ مُقابل .

ففرحَ الرَّجُلُ ، وفَكَّ رباطَ الدب ، وسحَبَهُ رغمَ مُقاوَمته حتّى مرَّ به عَلى دكان جزار ؛ فقال لصاحبه :

أعدَّ عُدتَكَ ، وسنَّ سكاكينكَ ، وتعالَ معى لنذبحَ هذا الدُّب .

فأخذَ الجزارُ أدوات الذبح ، والسلخ ، وصَحبَ الرَّجلَ إلى داره .

وهُناكَ أمسكَ الجزارُ والرَّجلُ بالدب ، وأحْكَمُوا كتافه ، والدبُّ يقاومُهُم بكُل قوته . حتى رَأوْهُ قدْ قَفزَ قَفْزَةً علا بها فى الفضاء . ثمَّ رأوه — والدهشَةُ تعقل ألسنتَهم — وهُوَ يسبحَ فى الهَواء مُبتعداً عنهم حتَّى غابَ .

وذلكَ أنَّ جنيًّا هَبَطَ عَلى علىَ ، وحَمَلَهُ وطارَ به إلى قصر اليَهُودى ، وكانَ اليَهُودىُّ يجلس إلى ابنته قمرَ يأكلان ويشربان ، وكانَ قدْ قَصَّ علَيْها ما فَعَلَ مَعَ عَلى الزئبَق ، وكيْفَ سَحَرَهُ حمَارًا ثم ، كيْفَ صَارَ مصيرهُ إلى الذبح .

فقالتْ قمرُ :

كنتُ أوَدُّ يا أبى لوْ تريثْت فى مُعامَلَة هذا الرَّجُل الذى يطْمعُ فى أن ينَالَ حُلَّتى ليقدمَهَا مهرًا لعروُسه حتَّى أرَاهُ .

فقالَ عُذرَة : يا بنتى ؛ لوْ كانتْ هذه رَغبَتك فما أيسرَ أنْ أرْسلَ جنيًّا منْ خدمى يأتى به منْ حَيثُ هُوَ لتريه .

ونَفَّذَ عُذرَةُ ما أرادتْ ابنتهُ قَمر ، فجلَسَ يُطلقُ البُخورَ ويدمدمُ ويتمتمْ وَيهمهم ، وما هىَ إلاَّ بُرْهَة حتَّى كان بينَ يديه جنى

يأتمرُ بأمْره ، ويَسألُهُ عمَّا يُريدُ ؛ فقالَ لهُ :

اذهَبْ وائتنى بعلى الزئبَق المصرى حَيثُ يكُون .

فطَارَ الجنىُّ إلى حيثُ كانَ على فى هيئة دب بينَ يدىْ الجزَّار ، وَيوشَكُ أنْ يذبحَ ، فاختْطفه وطارَ به حتى أنزلهُ بيْنَ يدىْ عُذرَةَ وابنته قمَر ، وهُما لا يزَالان فى مجلسهما يأكلان .

وتَناوَلَ عُذرَةُ طاستَهُ المعهُودةَ ، وتلا عَلى مائها ما يتلو من العَزَائم والرُّقى . ثمَّ رشَّ بمائها عَليـًّا وهُوَ فى هيئة دب ، فارتدَّ إلى هَيئته الأولى . هَيئة رَجُل سوى .

ونظرتْ قمرُ إلى عَلى فرَاقهَا منظَرُه ، وأعجبَتْ بقوامه ووَسامته ، فقَالتْ لهُ :

يا نَكدَ الطَّالع ،لمَ تتَطلَّعُ إلى حُلَّتى ،وتحتالُ للحصول عليْها ، فيسبب لكَ ذلكَ ما كنتَ عَليْه من مصير ؟ !

قالَ عَلى :

لأنى قدْ تعَهدتُ أنْ أجىء بحُلَّتك لتكونَ مهرًا لمنْ أريد أنْ أتزَوَّجَها .

قالتْ :

اعْدلْ عَنْ زَوَاجكَ منْ هذه التى تُريد أنْ تتلفَ روحَكَ ، وتُوردكَ موَاردَ الهلاك ، فما كُنتَ بأمهرَ منْ أسلافك الذين سَبَقُوك فى سبيل هذا الغرَضْ ، فكانَ نصيبهم الدمارَ والبوَار . . . !



وحمل الجنى الدب وطار به إلى قصر اليهودى

فقالَ عَلى :

لا بُدَّ أن يُسلِمَ لى أبوك بما أريدُ وإلاَّ كان نصيبُه منى فى النهاية أن أقتُلَهُ شرَّ قتلة .

فقالَ الأبُ لابنته :

ها قدْ رأيتِ يا بنتى مبْلَغَ عناده ، ومقدار طَمَعِه وسخافة عقله ، وكيفَ يسعى إلى هَلاك نَفْسه .

ثمَّ أخذَ طاسهُ وأخذَ يقرأ ويتمتم ويدمدم من جديد ، فسألتهُ ابنتُه :

ماذا تُريدُ أنْ تفعل يا أبى ؟

قالَ :

لا أزيدُ عَلى أنْ أصيرهُ كَلْبًا نجسًا .

فقالتْ الابْنَةُ :

بالله عليْكَ يا أبى إلاَّ تركْتَهُ وأعطَيتهُ وأعطَيتنى فُرصةً لأنْ أجعَلَهُ يرجعُ عَمَّا يعتزمُ ، فلَعلى أستَطيعُ أنْ ألينَ رأسَهُ ، وأجعْله يُقلعُ عَنْ تشدده وتَصْميمه .

فنَهرَ الأبُ ابنْتَهُ ، وقالَ :

لا تَتدخَّلى فيما لا يَعْنيك ، سأجْعَلهُ كلبًا نجسًا ، ولنْ يَرَى الحياةَ الآدميَّة بعْدَ ذلك قط .

وأسرَعَ عُذرَةُ فَرَشَّ عَليًّا بماء الطاس وهُو يقُول لهُ :

كُنْ كَلْبًا .

فانقلَبَ على كَلْبًا في الحال . . !

ولم يرُقْ قَمر ما فَعَل أبوُها بعلى ، ولكنها لمْ تَستطع أنْ تَفعلَ شيئًا ، فجلَستْ تُؤاكلُ أباهَا وتُشاربُهُ على مضَض .

وفى الصَّباح صَحبَ عُذرةُ الكلْبَ مَعَهُ إلى المدينة ، وبينا هوَ يسيرُ وعلىٌّ يتَبْعهُ مرَّ على دكَّان رَجُل سقَطىٍ يبيعُ الكُرَاع ورُءوسَ العُجول ، قد اجتَمعَ علَى دكانه عددٌ كبيرٌ من الكلاب . فمَا إنْ رأتْ الكلابُ علَيًّا وشمَّتْ رائحتَهُ حتى أخذتْ تَنْبحُه نُباحًا شديداً ، وهمَّتْ به ترُيدُ أنْ تُطاردهُ فقَام السَقَطىُّ ومَنَع الكلابَ عن علىّ ، وناداهُ ليتَبْعَهُ .

فتَبعَ علَىٌّ السَّقَطىَّ إلى دكَّانه ، فأعطَاهُ الرَّجلُ شيئًا كثيرًا من اللحمْ . وأشارَ إليه أنْ يأكلَ فأكلَ علَىٌّ حتَّى اكتفى إذْ وَجَدَ اللحمَ نَظيفًا شَهيًّا .

وآثر علَىٌّ مُصَاحبَةَ هذا الرَّجل السَّقطى الطيب القلْب ، علَى مُتابعَة اليَهُودىإلى دكَّانه، فَربَضَ بالقرب منهُ شاكرًا لهُ مَعرُوفهُ، مقدرًا جميله، صَابرًاعلى مكرُوهه ، لعلَّ الله يهىءُ لهُ منْ أمرهِيُسرًا .

وآنَ وقتُ عَوْدة السَّقطى إلى داره ، فأغلَق دكَّانهُ وانصرفَ ؛ فقَام على وسَارَ ورَاءه يتَبْعه ، عنْ كثب ولمْ يشأ الرَّجُلُ أنْ يطرُدهُ ، فتركهُ يتبعُهُ إلى داره .

ودخَلَ الرَّجُلُ إلى بيَتْه وعلى من خلَفْه فمَا إنْ وقعتْ عيَنْا ابنَة الرَّجُل علَيَه حتى دقتْ صَدرَها بيد ، وغَطَّتْ وَجْهها باليد

الأخرى ، وهْىَ تَقُول :

يا أبَت ؛ أتجىءُ بالرَّجُل الغَريب فتدخلُهُ عَلَيْنَا . . . ؟ !

فقَال َ الرَّجُلُ :

يا بنْتِى ، أىَّ رَجُل تَقْصدين . . . ؟ ! وتَلَفَّتَ عنْ يمينه وعنْ شماله ، ونَظَر خَلْفَهُ وقُدامهُ ؛ فَلَمْ يرَ إلاّ الكلْبَ الذى يَتْبعهُ ، فقال َ لهَا :

ليْس َ هُنا إلا هَذا الكلبُ الذى يَتْبعُنى . . . !

قالت :

ما هُوَ بكلْب ، وإنما هُوَ رَجُلٌ اسمهُ على الزئبق المصرى ، سَحرَهُ عُذرةُ اليَهُودىّ إلى هذه الصُّورَة فنظَر الرَّجُل إلى ابْنته دهشًا مُستَعْجبًا ، وقَال َ :

وَمَنْ أعلمَك هذا ؟

قالتْ :

لأنى تعلمتُ السحرَ على يد جاريتكَ ، ولكنى لمْ أخبرْكَ ، فأنا أميزُ بيْن المسحُور وغير المسحور .

فجعلَ الرَّجلُ ينظرُ إلى ابنته تارَةً وإلى الكلْب تارَةً أخرى وهُوَ لا يصدّقُ كلامَ ابنته ويَضْربُ كفًا بكف ويقُول :

عجبًا . . ! ! هَذا آدمى . . ! هَذا إنسان . . !

فأرادت ابنَتُه أن تُؤكِدَ لهُ ما تقوُلُ فنظرتْ إلى على وقالت :

ألستَ أنتَ عَليًّا المصْرى ؟

فأوْمأ لها الكلبُ برأسه أنْ : نعم .
فقالَ الرَّجُلُ :
وكيْفَ يكون الخلاصُ لهذا الرَّجُل . . ؟ .
فقالتْ الابنَةُ :
أنا أستطيعُ أن أخلِّصَهُ لوْ وَعَدنى بالزَّواج منى .
فسألَ الرَّجُلُ عَليًّا :
هَلْ تتزَوَّجُ ابنتى إذا خلَّصَتْك ممَّا أنتَ فيه ؟
فأشارَ علىٌّ أنْ : نَعَم .
فأحضَرَت الفتَاةُ طاسَ ماء ، وأخذتْ تتلوُ عليْه وتُتمتمُ ، وإذا بصرخَة عظيمة مُدوية انطلقتْ فى أرجاء البيت ، جعَلَتْ الفتاةَ تَتوقفُ عمَّا كانتْ بسبيله .
ونظَر الجميعَ إلى مصدر الصرخَة فإذا فَتاةٌ تطل على ابنَة السَّقطى من أعلى الدار وهى تَقُولُ :
أهذا هُو العهدُ بَيْنى وبَيْنك يا سيدتى ؟ !
ألمْ تتعهدى يومَ عَلمتُك السِّحرَ ألا تمارسيه إلاَّ بحضُورى ؟ !
ألم تُقْسمى لى أنَّ الذى يَتزَوَّجُك يَتزَوَّجُنى . . ؟ !
فنظَرَ الرَّجلُ إلى ابنته نظرَة استفهام ، ولكنها نظرتْ إلى الفتاة ، وقالتْ :
حَقًّا ! لقدْ اشترَطتِ عَلىَّ ذلك يومَ أنْ علَّمتْنى السحر !
فقالَ الرَّجُلُ :

ومَن الذى علّمَها . . . ؟!

قالتْ :

سَلها هى تخبرك .

فسأل الرَّجلُ الجارية :

مَنْ علّمكِ السحرَ يا جارية ؟

قالتْ الجارية :

لقدْ تعلَّمتُ يا سيدى السحرَ مِنْ عُذرةَ اليَهُودى قبلَ أنْ تشترينى منهْ ، إذ كنْتُ أتسلّلُ وأراقبُه وهْو يتلوُ تمائمَهُ ، ويزاولُ تعاويذه ، ويطلقُ بخُورَهُ ، فإذا ما خرجَ من الدار عكفْتُ عَلى كُتُبه ومخطُوطاته أقرؤها وأستوْعبُها حتى تعلّمتُ السحرَ . وألممتُ بالعلومُ الرُّوحانية ؛ فلمَّا اشتريتنى منهُ وَجئتُ إلى هُنا علّمتُ سيدتى الصَّغيرةَ السحرَ ، واشترطتُ عَليْها ألاَّ تزاوله إلاَّ بمشورتى ، وأن الذى يَتزَوَّجُها تَقبَلُ أنْ يَتزَوَّجَنى مَعَها .

ثم أخذتْ الجارية طَاسَ الماء منْ يَد ابنَة السَّقطى وأخذتْ تَتلو عَليْه ثمَّ رشّتْ به عَلياً وهى تَقُولُ :

ارجعْ إلى صُورَتك البَشريَّة .

فعَادَ إنسانًا كما كانَ أولا ، ففَرحُوا بذلك جَميعًا ، ورَحبَ السَّقطى بعلى ، وقالَ لهُ :

ما قصَّتُكَ يا فتى ؟! وما سبَبُ ما كنُتَ عَليْه . . . ؟!

فجلَسَ عَلى بيَن الرَّجل وابنته والجارية يَقُصُّ عَليهم ما كانَ

من أمْره ، فلمَّا انتهى سأله ُ الرَّجل :

والآن . . علَى أى شىء عزَمت ؟ ألا يكْفيك الزَّواجُ من ابنتى والجارية ؟

قالَ علَى :

لا بدَّ منَ الزَّوَاج من ْ زَيْنَب .

وبينما هُمْ كذلكَ إذْ بقَرْع علَى البَاب ، فسألتْ الجارية ُ :

من ْ بالبَاب ؟

فأجابَ صَوتٌ نسائى :

أنا قمرُ بنتُ عذْرةَ اليَهُودى ، أليْسَ علَى الزئبق بمنزلكُمْ ؟

فقالتْ ابنة ُ السَّقطى :

وماذا تُريدينَ منه ُ يا ابْنةَ اليَهُودى لوْ كانَ عندنا ؟ !

فقالَ على :

افتحوا لهَا البَابَ حتَّى نَرَى ماذا تُريد ُ .

فلَمَّا فتحَ البابُ ودخلَتْ قمرُ قَالَ لهَا علَى :

ماذا تُريدينَ يا شَقيَّة ُ ، يا ابْنَةَ الشَّقى ؟ !

قالت :

أريدُ أنْ أسألَ . . أيمهَر الرجَال ُ النساء ، أمْ تمهَرُ النساءُ الرجالَ فى دينكم ؟ !

قالَ علَى :

إنما الرجالُ َيمْهَرُون النساء .

قالتْ :

وأنا جئتُ أمهر نَفْسى لكَ بالحلَّة والقَصَبة والسَّلاسل ، ورأس أبي عدوك وعدو الله .

ثم فَتَحتْ كيسًا كبيرًا كانتْ تحملُهُ ، وأخْرجَتْ لعلى الحلَّة التى رَأى فى سبيلها من الأهوال ما رَأى، وأعطتْهُ كذلك الصينيةَ والسلاسلَ والقَصَبة الذهبية ، ثم أخرجتْ لهُ رأسَ أبيها مَلْفُوفًا بقْطُرُ منهُ الدمُ .

فَسألها الجميعُ بلسان واحد — وقد أخذتهمُ الدهْشَةُ واستبدَّ بهم العَجَب :

هَلْ قتَلْت أباك . . ؟

قالت :

بَعْدَ أنْ سَحَر أبي عَليًّا كلبًا ، رَأيتُ فى المنام هَاتفًا يهتفُ بى أنْ : أسلمى يا قَمَر ، واعرضى عَلى أبيك الإسلامَ ، فإنْ رَفَضَ فاقتُليه ، فَهببتُ منْ نوْمى ، وذهبْتُ إلى أبى أعرضُ عَلَيْه الإسلامَ وكُنتُ أعلمُ أن لا دين لهُ ،فأعرضَ عَنى وسبنى ووَعدنى بالعذاب والعقاب إنْ لمْ أرْجع عَمَّا أنا فيه فسَكَتُّ عَنْهُ حتَّى نامَ ، ثمَّ جئتُ بالسيف وحزَزْت رَأسَهُ ، وَجئتُ به لعلى ، وحمَلْتُ إليْه ما كانَ يَطلُبُ من الحاجَات ، وكذلكَ لأعْرضَ عَلَيْه الزَّوَاج .

فأخذَ عَلى الحَاجَات بما فيها رَأسُ اليَهُودى وقالَ :

سأنصرفُ أنا الآن ، وقابلونى جَميعًا غداً عِنْدَ الحاكم لنرى ما سَيَكُون .

١٢

وَسَارَ عَلى بالكيس الذى أتَتْهُ به قَمَرُ بنْتُ عُذرَةَ اليَهُودى وهُوَ لا يَكادُ أنْ تَسَعَه الأرضُ منْ شدّة فَرَحه وعظم ابتهاجه .

وبَيْنا هُوَ يجدُّ السير فى طَريقه إلى إيوان أحْمد الدنف ، شَاهدَ عَلى قَارعة إحدى الطرقات شابًّا يَقفُ أمام قاعدة من الخشَب عَلَيْها صينيّةٌ بها أنْواعٌ مختلفةٌ منْ أصْناف الحلْوى ، ورَأى علىٌّ هَذا الشَّاب يُشيرُ إليْه ويُناديه وهُوَ يَسْتحلفُهُ أنْ يتَذوقَ حَلْواهُ ، ويبدى فيها رَأيه ؛ فاقترَبَ عَلى منْ بائع الحلْوَى وأخذَ منْهُ قطعَةً كانَ يمدُّ لهُ بها يدهُ وَأكلَهَا ، فما كادتْ تَستَقر فى جَوْفه حتَّى دارَتْ به الأرضُ ، وَسَقطَ غائبًا عَن الوُجُود ، فقدًا وَعْيَهُ . فأسرعَ بائعُ الحَلْوى إلى الكيس الذى كانَ يَحْملُه عَلىٌّ فأخَذهُ ووَضَعَهُ فى القاعدة التى يَضَعُ عليْها الصينيَّة ، وحمَلَ هذه وَتلكَ وسَارَ مُنْصرفًا .

وَلكنَّهُ ما كادَ يَسيرُ قليلاً حتَّى قابَلَهُ رَجُلٌ يبْدو عَليْه الوقَارُ والهيْبَةُ ويَلْبسُ ملابسَ القضَاة ، فقَالَ له :

يا بائعَ الحلْوَى ، أرنى ما مَعَكَ منْ حَلْوى ؛ لأشترىَ شَيْئًا منْها .

فَحط الحلَوانىُّ قاعدته ، ومن فوقها صينيته ، وأعطى الرجلَ ما رغبَ فى شرائه ، ولكن القاضى أمسكَ بالحلوى ، وقاربها من أنفه يشمها ، ومن لسانه يتذوقها ، ثم قالَ للبائع :

يأيها الرجلُ ؛ لمَ لاَ تصنعون حلواكم الآنَ أصنافًا جيدة ؟!
إن هذه الحلوى مغشوشة ، ومن أنواع رديئة .

ووضعَ الرجلُ يدهُ فى جيبه ، ثمَّ أخرجها وبها شىء من الحلوى وهوَ يقول :

انظُر إلى هذه الحلوى وتذوقها ، واصنعْ مثلها ، يحبُّ النّاس حلواك ويُقبلون على شرائها .

فأخذَ الحلوانىُّ من الرَّجل ما قدمه لهُ منَ الحلوى . وأخذَ جزءاً منها ، ووضعَهُ فى فمه ليذوقَ طعمَه ، ولكنهُ لم يستطعْ أنْ يُبدىَ رأيًا ، أو يحكُم على جودة الحلوى أوْ رداءتها ؛ لأنَّه لم يكدْ يضعُها على لسانه حتّى سقطَ فى الحال على الأرض وقد غابَ رُشده وفقدَ وعيه .

فتقدمَ الرَّجلُ منَ القاعدة التى بها الكيسُ الذى أخذهُ الحلوانى من على ، فرفعَ الصينيّةَ . وأخذَ الكيسَ ثم رفعَ الحلوانى ووضعَهُ فى القاعدة وغطّاها بعباءة القُضاة التى كانَ يلبسها ، ثم حملَ القاعدة والكيسَ وسار بهما .

واجتمعَ نفرٌ منَ المارَّة حولَ على الزئبق وهوَ راقدٌ على الأرْض غائبًا عنْ وعيه لا يدرى ممَّا يدورُ منْ حوله شيئًا وسأل

بعض المارَّةَ بعضا :

ما بالُ هـَذا الرَّجُل مطْروحـًا عـَلى الأرْض . . ؟ ! وما الذى حـَدثَ لـَهُ . . . ؟ !

وَبينما هـُمْ كذلكَ ، شقَّ هـَذا الجمعَ بـِضْعَةُ رجال ، تقدمَ أحدهـُمْ مـِن عـَلى وهـُوَ راقدٌ على الأرْض ، فـَشـَمـَّمهُ فى أنفه شيئـًا ما إن دخلتْ رَائحتهُ إلى مـَعاطـسه حتى ابتدأ يتحرَّكُ وتدبُّ فيه الحياةُ . وَيعود إليـْه عـَقـْلُـه .

وفتـَح علىّ عـَيـْنيـْه ، فرأىَ من حـَوْله جمعـًا من النَّاس يلتفونَ حـَولـَهُ . ورأى بالقربْ منـْهُ وجهـًا عرَفـَهُ ، فسألَ صَاحبه :

أينَ أنا يا عـَلىُّ كتف الجمل . . . ؟

أجـَابَ عـَلى كتـف الجمـَل – وكانَ هـُوَ الذى شمـَّم عـَليـًّا الزئبق التّرياقَ الذى أفاقـَهُ منْ خدره :

لـَقـْد وَجـَدناكَ مـُبـَنجـًا ها هـُنا ؛ فمن الذى بـَنـّجـَكَ ؟

فتـَذكرَّ عـَلىٌّ ما كانَ من أمره مـَعَ الحلوانى وأدركَ أنَّ الحلوانىَّ هـُوَ الذىفعـَلَ مـَعـَهُ ما فـَعـَل ، فكاد أنْ يـَنشـَقَّ غيظـًا وقهرًا ، وأنْ يـَنـْفـَطرَ حـُزْنـًا عـَلى ضيـَاع الكيس ، بـَعـْد أنْ لاقى ما لاقى فى سـَبيل الحصُول عليـْه .

قالَ عـَلىّ كـَتـف الجمـَل :

قـُمْ بنـَا يا عـَلىُّ إلى قاعـَة رَئيسنـَا أحـْمد الدنـَف حتَّى تستـَجمَّ وتـَستريحَ .

وعَاوَنَ عَلى كتف الحمل وأصحابه الذين أتَوْا مَعَهُ عَلياً المصرى عَلى السَّيْر بَيْنهم حَتَّى وصَلُوا به إلى إيوان الرئيس .

وقالَ أحمدُ الدنَف يسألُ عَلياً المصْرىَّ حينَ دخَلَ عَلَيْه :

يا عَلىُّ ! ماذا فعلتَ فى غَيْبتك ؟ أجئتَ بالُحلَّة التى غادرْتَنا فى طَلَبِها ؟ !

أجَابَ عَلىٌّ :

لَقَدْ جئتُ بهَا وَبغيرهَا ، وَجئتُ برأس صَاحِبها ؛ وَلكنى وقَعْتُ فى يَد رَجُل حلوانى قدمَ إلىَّ فى غَفلة منى بنْجاً غابَ بسَبَبه وَعيِ ، وفَقَدتُ رُشدى ؛ وما كدتُ أفيقُ منهُ حتى تحسَّستُ الكيسَ وما كانَ مَعى فلمْ أجد شيئاً ، ومَا أشُكُّ فى أنَّهُ هُوَ الذى أخَذ الكيسَ بما فيه .

وجَعَلَ عَلىٌّ يَصفُ للحاضرين الحلوانىَّ ، ثمَّ سألَهُمْ :

أتَعْرفونَ منْ يكونُ ذلكَ الرَّجلُ صَاحبَ هَذه الصفات التى ذكرتُها لكُمْ . . ؟ !

قالَ حسنٌ شُومان :

أنا أعْرفُه يا عَلىّ .

فقالَ عَلىٌّ بلهفة :

منْ يكوُن ؟ ! وأينَ هُو ؟ ! وما سَبيلى إليْه ؟

قالَ حسنٌ شُومان :

تَعَالَ مَعى لأدلكَ عَلَيْه .

ونهضَ حسن شُومان ، فدخَلَ إلى أحد السّراديب الذى يَنتهى بقَاعة ضَيقَة فى داخل الإيوان ؛ فتَبعَهُ على وَهُوَ فى دهْشَة ، وعَجبَ منْ أمْره . وتزايدت هَذه الدَّهشَةُ . وَبلغَ منْه العَجَبُ كُلَّ مَبلغ حينَ وقَعَت عَيْناهُ على الحلَوانى ممدداً بأرْض القَاعَة .

وسَأل عَلىٌّ حَسَن شُومان :

من أتى بهذا الرَّجُل الحلوانى إلى هُنَا ؟

قالَ حسن شُومان :

أنا الذى أتَيتُ به .

وَمَالَ حسن شُومان نحو الحلوانى ونَشَّقهُ محلولاً جَعَله يُفيقُ شيئًا فَشيئًا ممَّا كانَ به من تأثير البنج .

وأفَاق الحلوانى ونَظَر حَوَاليْه فوَجَدَ حسنَ شُومان وعَليًّا الزئبَق ، ووَجَدَ كذلكَ أحمَدَ الدنَف وبَقيَّةَ عصَابته ، وكانُوا قَدْ دخلُوا هُمْ أيْضًا إلى القاعة فى أثر حسن شُومان وعلى الزئبَق يَلْتَفونَ منْ حَوْله :

وفزعَ الحلوانىُّ ، وتَمَلكَهُ الرُّعْبُ . وَصَاحَ بصَوت مختَنق :

أينَ أنا ؟ وَمَن الذى قَبَضَ عَلَىَّ ؟

قالَ حَسَن شُومان :

أنا الذى قَبَضْتُ عَلَيْكَ ، وجئتُ بكَ إلى هُنا ، واعْلَمْ أنَّكَ الآن فى إيوان أحْمد الدنَف .

عندئذ تَقَدَمَ عَلى الزئبَق منَ الحلوانى يريد أنْ يَبْطشَ

بـه ليشْفِيَ بعضَ ما فى نَفْسـه منْ غَيْظ شديد بما فَعَلَ مَعَهُ ، فقالَ لَهُ حَسن شُومان :

ارْفَعْ عَنْهُ يدكَ يا عَلى ، ولا تَمَسَّه بأذى ؛ فإنَّهُ صهْركُ ! !

فحملْق عَلى فى حسن شومان مُسْتَعجباً وقالَ :

صهْرى ؟ ! أىُّ صهر هَذا . . ؟ !

أجَابَ حسنُ شومَان :

هُوَ أحْمَدُ اللقيط ابنُ أخْت زَيْنبَ التى دوَّخَكَ مَهْرها ، بنتُ دليلةَ المُحْتَالَة . . . !

فقَالَ عَلىٌّ :

ولأى شيء فعَلْتَ مَعى ذلكَ يا لقيط ؟ !

قال أحمدُ اللقيط :

بذلك أمَرتْنى جَدتى دليْلةُ حينَمَا أخبرهَا أخُوها زُريق السمَّاك بمَا كانَ بَيْنَهُ وبَينَكَ منْ عهد بشأن مَهْر ابنتها زَيْنب . فقَدْ أحْضَرتنى وسألتنى :

هَلْ تعرف عَليًّا الزئبق ؟

قُلتُ لهَا :

نَعَمْ أعرفُهُ . فَقَدْ أرشَدتُهُ إلى إيوان أحمد الدنف يومَ جاءَ إلى بَغْدادَ .

قَالتْ :

إذنْ تَنَكَّرْ فى زى حَلوانى ، وتربَّصْ لهُ بالطَّريق كُلَّ يوْم ،

حتّى إذا ما رأيته قدْ عاد مُنْتصرًا منْ عنْد عُذرةَ اليَهُودى ومَعَهُ حلّة ابنته قمرَ — فتحايَلْ علَيْه بحيلَة حتى تأخُذها منهُ ، وائتنى بها ، وعلى ذلكَ تنكّرتُ وفعَلْتُ ما فعلتُ ولاَ أدرى السَّببَ الذى أوْقعنى فى أيديكم .

قالَ حسن شُومان :

السَّببُ هُوَ أنَّ أحمد الدّنَف استَبْطأ عوْدةَ علَى الزئبَق فبعثَ بعَدد من رجاله — ومنهمُ أنا للبَحثْ عَنْهُ ، وتسقط أخْباره ، فتنكّرتُ أنا فى زىّ قاض . وبينما كنْتُ أجوبُ أطرافَ المدينةرأيتُكَ تفعل بعَلى ما فعلتَ ، ففعَلْتُ أنا معَك مثلَ ما فعلْتَ معَه ، وجئتُ بكَ إلى هُنا حتّى نَقف علَى خبَرك ، ونَعرفَ حقيقتكَ وغايتك ، وأرسلْتُ إلى علَى من الرجال منْ عملوا على إفاقته والمجىء به .

فقالَ أحمدُ الدنَفُ لأحمد اللقيط :

اذهَبْ الآنَ إلى جدتك وخالك زُرَيق ، وأعلمْهُما أنَّ عليًّا الزئبَق قَدْ جاء بما طَلبَا مَهرًا لزينب ، وأبلغهما أنْ يُقابلانا غداً بديوان الخليفة ليتسلّما مهرها .

وفى صباح اليَوم التّالى صَحبَ أحمد الدنَف عليًّا المصرى إلى ديوان الخليفَة ومعَهُما الكيسُ وبه حُلّةُ قمرَ والصينيّة والسّلاسل والقَصبَة ، ورأس اليَهُودى وقد غرزَه علىٌّ فى مزراق طَويل من الخشَبَ .

ومثل الجميعُ أمامَ الخليفة : علىٌّ الزئبق . ورئيسه أحمدُ الدنَف وحَسن شومان . ودليلةُ المُحتالة ، وأخوها زُرَيق ، والسَّقطىُّ وابْنَتُهُ وجَاريتُهُ ، وقمرُ ابنَةُ عُذرةَ اليَهُودى .

وتقدَّمَ علَى منَ الخليفَة . وقدم إليْه رأس اليَهُودى وهُوَ يقُول :

هَذا هوَ رَأسُ السَّاحر الماكر عدو الله .

فسألَ الخليفةُ عنْ سَبَب قَتْله . وعَمن قتلَهُ ، فقَصَّ علَيْه علىٌّ قصَّتَهُ ، وأخبرَهُ ما كانَ . . !

فأعْجبَ الخليفَةُ بعلى أيمَا إعْجاب ، وقالَ لَهُ :

قدْ وَهبتُ لكَ يا علىُّ ما كانَ لليَهُودى بعدَ أنْ كان ملكًا لبيْت المَال ، ولكَ حَقُّ التَّمَنى علَىَّ بما تُحبُّ وترْغَبُ .

قالَ علَى :

تمنَّيتُ علَيكَ أنْ أقفَ علَى بسَاطك . وأن يكُونَ عَيْشى فى كَنفكَ منْ جُودك وَإنْصَافك .

فسألَهُ الخليفَةُ :

هَلْ لكَ صبْيانٌ وَغلمانٌ يا علَى ؟

أجابَ علَى :

نَعَمْ ، لى أربَعُونَ صَبيًّا ، وَلكنَّهم فى مصر .

قالَ الخليفَةُ :

أرْسل إليْهم ليَحضرُوا إلى بَغْدادَ .

ثم سألهُ :

هَلْ لكَ إيوانٌ أوْ مَسكنٌ تملكهُ .

قالَ علَى :

لاَ يا مَوْلاى ، وأنا أنزل عندَ رَئيسى أحْمَدَ الدَّنَف .

فقالَ حَسن شومان :

يا مَوْلاى ، أنا أضَع إيوانى تَحْتَ تصرُّفه .

فقالَ الخليفَةُ :

إيوانُكَ لكَ يا حَسن شُومان ، ومن الغَد يكُون لعلى وغلمانه إيوانٌ مثْلُه .

ثم أمَرَ الخليفَةُ خَازنَه أنْ يَصْرفَ للمُهندسين والمعْماريين ما يَقُومُ ببناء إيوان لعلى الزئبق . يحْوى أرْبَعَة أبهاء ، وَواحداً وأرْبعين مخدعًا .

عنْدئذ تقدمتْ قمَرُ بنتُ عُذرَةَ اليَهُودىِّ منَ الخليفة ، وعَرَّفَتْهُ بنفسها ، ثمَّ قالتْ :

وقَدْ جئتُكَ يا مَوْلاى أشهرُ إسلامى بَينَ يديك .

ونَطقَتْ بالشهادتين . ثم قالتْ :

وقَدْ ضَحَّيتُ يا مَوْلاى بحياة أبى وبحُلَّتى إرْضَاءً لعلىّ ؛ وكان قد اتفقَ مَعى عَلى أنْ يتخذنى زَوْجًا لهُ ؛ فَهَلْ هُوَ عند شرطه؟

فقالَ الخليفةُ :

ألا تعلمين أنَّه إنما يُريدُ الزَّواجَ منْ زَينبَ وأنَّه قد جاءَ يمهرْها بما اشترطَتْ علَيْه .

قالتْ :

وإنمَّا أنا الذى أتيَتْهُ بحُلَّتى التى كانَ يرْغَبُ فيها ، واشترطْتُ علَيْه الزَّواجَ منى علَى أنْ أسلمَهُ إيَّاها .

فقال الخليفَةُ لعلى :

أتقْبلَّ الزَّوَاجَ يا على منْ قمر جزاءَ ما تكبَّدتْ منْ أجْلك وقدَّمتْ لكَ .

فقالَ على :

أقبلُ يا موْلاىَ ما دمتَ راضياً .

عنْدئذ تقدمَتْ ابنةُ السَّقطى وجاريتُهُ ، وقصَّتْ كُلّ منهما قصَّتها وقالتا :

نحنُ اللتان أنْجيناهُ ممَّا كانَ فيه ، وقد اشترْطنَا علَيْه الزَّوَاجَ منَّا مُقابل ما قُمْنا به نَحْوَه فقبلَ .

فسألَ الخليفةُ علياًّ :

وما رَأيْكَ فى هاتَين الفتَاتيْن يا علَى ؟

قالَ علَى :

وقدْ قبلْتُ الزَّواجَ منْهما بما وَعدتُ .

فقَالَ الخليفةُ :

يا علَى ، ألكَ حاجَةٌ أخرَى توَدُّ قضَاءها ؟

قالَ علَى :

نَعَمْ ؛ بقِى أنْ تكُونَ واسطَةً بيْنَ زَينَبَ وأمها وخالها فى زَوَاجى منْها ، فقَدْ جئتُ بالُحلَّة مَهْرًا لهَا .

عندئذ تقَدمَتْ زَيْنَبُ منَ الخليفَة تقُول :

يا موْلاى ، لقَد كنتُ أنا الزَّوجَةَ الوحيدة التى ينْشُدها حينَ اشترَطْتُ علَيْه أنْ يمهرنى بحلَّة بنْت اليَهُودى . أمَّا الآنَ فقَدْ قَبلَ أنْ يتَزوَّجَ منْ ثلاث غيرى ، وهذا وَضْعٌ لا أرْضَاهُ أنا ، فلاَ أحبُّ أنْ تكونَ لى ضرةٌ واحدة فضْلاً عنْ ثلاث ضرائر .

فقالَ الخَليفَةُ :

يا زينبُ ، لقَدْ اشترَطْتِ أنت وأملك وخالك علَى علَى أن يأتيكُمْ بالُحلَّة ، فجاءَ بها ؛ أما أنْ يتَزوَّجَ غيْرك فلَمْ يكن علَيْه بينكُم شرطٌ ، ثمَّ ما كانَ زوَاجُهُ منْ هؤلاء النساء بمحض رغبته واختياره من أوَّل الأمْر ، بَل تَسَبَّبَ فيه ذلكَ الشرط الذى اشترطتمُوُه علَيْه ، وكلُّ واحدة من هؤلاء الفتيات أسهمَتْ بنصيب فى تيْسير إحْضَار حُلة قمَر ، بَلْ إنَّ إحداهُنَّ ضَحَّتْ بأبيها فى سَبيل حُصُول علىٍّ علَى الُحلَّة ، وخَرجَتْ منْ دينها إلى دين آخَر من أجل علَى . . .

عندَ ذلكَ لم تجدْ زَيْنَبُ إلاَّ أن تنزلَ علَى رَأى الخليفَة

وَإِرَادته ، فقبلت الزواج من علي ، ووافقتْ على ذلك أمها دليلةُ ، وقبَلَ خالها زريق .

فأمر الخليفةُ بإحضَار القاضى لكتابة العقُود ، وتوثيق الزّوَاج ، فحَضَرَ، وعقَد عقْدَ زينَبَ بنْت دليلةالمحتَالة عَلى عَلىّ المصْرى ، كمَا عقَدَ عقْدَ قَمر وابنة السّقطى وجاريته عَليْه أيضًا .

كما أمرَ الخليفةُ بإرْسال كتاب إلى مصرَ يطلُبُ فيْه من غلمان عَلى الزئبق الحضُورَ إلى بَغدادَ

وأقيمَ لعَلى المصْرى فَرحٌ ، نُصبَتْ فيه السرادقاتُ ، وأضيئتْ الأنوار ، وأحْييَتْ الليالى بالغناء الحلو منْ أمهر المُغنّين ، وبألعاب السحْر والشعوذة من كبار السحَرة والمشَعْوذين ، واستمرّ الفرح أيامًا وليالى ذوات عَدد زُفّتْ إليْه فى نهايته زينْبُ بنتُ دليلةَ وَهيَ مجلُوةٌ فى حُلّة قمر الذهَبيّة المرَصّعة بالجواهر ، كما زُفتْ إليْه قمرُ وابنةُ السّقطىُّ والجارية .

وتمّ بناءُ إيوان عَلى الزئبق ، فأسكنَ فيه عَلى غلمَانَهُ الذين كانُوا قدْ أتَوْا إلى رئيسهمْ عَلى جَناح السرعة حينَ جاءهُمْ طلَبُهُ مُعَزّزًا برغبة الخليفة .

وأفردَ عَلىٌّ لكل زَوْجَة منْ زَوْجَاته جَناحًا خاصًا بها فى ناحية منَ الإيوان ، وعاشُوا جَميعًا فى تبَات وَنبات ، وخلّفُوا بنينَ وَبنات .

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٣٤٩٢
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3245 – 9	ISBN

١٨٤ / ٩٠ / ١ طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

ألف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التى تنتمى إلى التراث الشعبى.. والتى نالت إهتمامًا عالميًا فى الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التى تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التى توجد فى طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذى تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

١ - شهر زاد ودنيا زاد
٢ - السندباد البحرى
٣ - قمر الزمان
٤ - الصياد والعفريت
٥ - معروف الإسكافى
٦ - الأحدب والخياط
٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى
٨ - أبوالحسن وجاريته تودد
٩ - الحصان المسحور
١٠ - على بن بكار وشمس النهار
١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة
١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب
١٣ - على بابا



دار المعارف